

لا عزاء في القرب: السوريون في لبنان

تقرير الشرق الأوسط رقم 141 | أيار/مايو 2013

جدول المحتويات

i الملخص التنفيذي
iii التوصيات
1 I. مقدمة: إعادة رسم الخارطة
3 II. تدفق هائل للاجئين
3 أ. السوريون في لبنان
5 ب. محاولات لبنان الشاقة للاستجابة
8 III. الأبعاد السياسية لقضية اللاجئين
8 أ. اللاجئين في المناطق "الصديقة"
10 ب. حزب الله والطائفة الشيعية
12 ج. المخاوف المسيحية
14 د. الجدال الدائر حول مخيمات اللاجئين
16 IV. إعادة تعريف المشهد اللبناني - السوري
16 أ. الشبكات المناهضة للنظام
16 1. البعد شبه العسكري
18 2. علاقات سياسية متجددة
19 3. دور الجمعيات الخيرية الإسلامية
21 ب. تعزيز قوة الشبكات الموالية للنظام
24 V. الخلاصة
	الملاحق
25 أ. خارطة لبنان

المخلص التنفيذي

يستمر الصراع في سورية في جر البلدان المجاورة إليه وبشكل يبلغ أقصى درجات خطره في لبنان. سياسة بيروت المعلنة في "النأي بالنفس" - أي السعي، من خلال الإحجام عن الوقوف إلى جانب أي من الطرفين، إلى المحافظة على مسافة بينها وبين الحرب الدائرة هناك - سياسة صحيحة نظرياً لكن يعترها الكثير من الشكوك من الناحية العملية. إن الحدود القابلة للاختراق، وتهريب الأسلحة، وتنامي انخراط الإسلاميين السنة المناهضين للنظام السوري من جهة وحزب الله المؤيد للنظام من جهة أخرى، والمناوشات التي تجري عبر الحدود، إضافة إلى تدفق أعداد هائلة من اللاجئين، عوامل تؤدي مجتمعة إلى انغماس لبنان بشكل أكثر عمقاً من أي وقت مضى في الصراع الدائر في البلد المجاور. قد لا يكون من الواقعي توقع تراجع اللاعبين اللبنانيين؛ إذ يشعرون بأن مصير سورية هو مصيرهم، وأن الرهانات مرتفعة إلى درجة يصعب معها الوقوف موقف المتفرج. لكن ينبغي أن لا يكون من غير الواقعي توقع أن يتبنوا - مع شركائهم الدوليين - مقاربة أكثر تطلعاً إلى الأمام حيال أزمة لاجئين تخاطر بتمزيق النسيج الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لبلدهم، وإشعال صراع داخلي جديد لا تستطيع دولة لبنانية ضعيفة ومنطقة شديدة التقلب تحمّله.

هذه حكاية تشكل الأرقام أفصح راوٍ لها؛ فهناك أكثر من مليون سوري في لبنان، لاجئون مسجلون وغير مسجلين، إضافة إلى العمال المهاجرين وغيرهم. هذا الرقم الذي يشكل أكثر من ربع سكان لبنان الذين يقدر عددهم بنحو أربعة ملايين نسمة هو في ارتفاع مستمر ومن المرجح أن يخلّق إلى ارتفاعات أكبر إذا تم الانخراط في معركة دمشق، أو عندما يحدث هذا الانخراط، بشكل كامل. هذا رقم مهول في أي مكان، لكنه مخيف فعلاً بالنظر إلى الهشاشة المؤسساتية للدولة، ومواردها الشحيحة، وربما الأكثر من ذلك، التوازن الطائفي بالغ الحساسية. من غير المفاجئ أن الحكومة - التي تعاني من الانقسام والاستقطاب حول هذه القضية كما حول معظم القضايا الأخرى - تتصرف ببطء وعدم فعالية.

إن الأثر الذي يحدثه ذلك على مجريات الحياة اليومية هو أثر ملموس. يمكن رؤية التغيرات الديموغرافية في جميع نواحي الحياة تقريباً، من سماع اللهجة السورية في كل مكان، إلى تفاقم الاختناقات المرورية، إلى ارتفاع أسعار المنازل وزيادة معدلات الجنوح. إلا أن اللاجئين لا يشكلون مشكلة إنسانية فقط؛ فقد دفع وجودهم إلى استقطاب سياسي عميق إذ إن غالبية هؤلاء هم من السنة الذين يدعون الانتفاضة. ومعظم اللبنانيين ينظرون إلى الصراع من منظور مذهبي، وبالتالي فإن موقفهم حيال اللاجئين تأثر منذ البداية بالاعتبارات المذهبية، وكذلك بالآثار الأمنية المحتملة وتداعيات ذلك على السياسات الداخلية المستقبلية.

لقد توجه اللاجئين إلى المناطق ذات الأغلبية السنية التي رحبت بهم. لكن حتى في تلك المناطق، فإن الصبر بدأ بالنفاد. تبقى الكراهية للنظام السوري حادة وتقوق ما عداها من المشاعر. رغم ذلك، هناك غضب متزايد حيال حقيقة أنهم يعترضون للبرهان السورية بسبب تقديمهم الملاذ والغطاء للمتطرفين على النظام السوري. إضافة إلى ذلك، ثمة تاريخ من الأشكال النمطية المتفاعلة، إذ إن السوريين، وكما يراهم العديد من اللبنانيين، يقعون في تصنيفين واسعين: عمال مياومين ومجرمين غير متعلمين وذوي دخول متدنية أو جنود وعناصر أمن يمارسون الانتهاكات. تساق الشكاوى في كلا الاتجاهين: من اللبنانيين الذين يحملون ضيوفهم مسؤولية إحداث درجة أكبر من انعدام الأمن، إلى السوريين الذين يتهمون اللبنانيين بعدم احترامهم، أو استغلالهم أو حتى الاعتداء عليهم. وثمة نزعة متصاعدة من الحوادث الإجرامية والشجار في الشوارع. يمكن تلمس درجة أكبر من العداء والشكوك في أوساط الشيعة والمسيحيين. في المناطق ذات الأغلبية الشيعية التي تشهد الآن وصول أعداد من اللاجئين، يعبر العديد من السكان المحليين عن مخاوفهم من أن الأعداد يمكن أن ترتفع، في حين يخشى حزب الله من أن تشكل مشاعر اللاجئين المعادية للنظام مقدمة لحراك ضد الحزب نفسه. العديد من المسيحيين باتوا يشعرون أنهم أكثر هشاشة ويشعرون بالرعب حيال التوازن الديموغرافي الذي يزداد رجحاناً ضدهم. تعيدهم الموجة البشرية الراهنة إلى تجربتهم مع اللاجئين الفلسطينيين الذين تحول استقراهم قسراً إلى الأجل نظرياً إلى وجود عسكري كبير، وطويل الأمد، وسني على الأغلب. كما يغذي هذا اعتقاداً عاماً بأن الطائفة السنية في لبنان - خصوصاً الإسلاميين فيها - يحظون بمزيد من التمكين، ويكبون مداً إقليمياً تصعب مقاومته.

تعتبر قضية اللاجئين وجهاً واحداً فقط من تحدٍ أوسع يواجهه لبنان نتيجة الصراع السوري. إن الديموغرافيا السياسية للمنطقة التي تضم البلدين تشهد تحولاً مع زيادة قابلية الحدود للاختراق. المنظمات الإسلامية اللبنانية التي تشكلت لمساعدة السوريين تشكل أيضاً أداة للتعبئة الاجتماعية، حيث تهدد بإنتاج جيل راديكالي من السوريين، وذلك بزرع أفكار متشددة ومعادية للشيعة والعلويين في أوساطهم. يقوم المتشددون الإسلاميون السنة في لبنان بتهريب الأسلحة والانضمام إلى صراع أخوتهم السوريين، والذي أصبح المقصد المفضل

للجهاديين. وهناك دائماً مخاطرة نشوء مسار عكسي؛ فحالما ينتهي عمل هؤلاء في سورية، قد يتوجهون بأنظارهم مرة أخرى إلى وطنهم.

أما انخراط حزب الله فهو أكثر حدة. ما بدأ بوصفه مساعدة متواضعة نسبياً للنظام تنامي واتسع بمرور الوقت إلى ما يبدو أنه أصبح حالياً دعماً عسكرياً مباشراً، وشاملاً، وكاملاً وغير مخفي على نحو متزايد. الغارات الجوية الإسرائيلية الأخيرة (غير المؤكدة رسمياً) ضد أهداف في سورية - والتي يقال إنها استهدفت شحنات أسلحة إيرانية موجهة إلى الحزب الشيعي - والخطاب التصعيدي لحزب الله تعكس احتمالات متزايدة لتشابكات إقليمية يكون لبنان طرفاً فيها. بشكل عام، وحتى مع تمسك بيروت بسياسة النأي بالنفس، فإن اللاعبين خارج أجهزة الدولة بالكاد يشعرون بأن ذلك يقيدهم. لقد تم تجاهل آمال لبنان بأن يكون منيعاً على الصراع من قبل أطراف داخلية تعتبر حصيلة هذا الصراع بالنسبة إليها ذات أهمية شبه وجودية.

تاريخياً، ارتبط مصير لبنان دائماً، وأكثر بكثير من مصير أي جار آخر، وبعمق، بمصير سورية. مع توجه سورية وبشكل أكثر ثباتاً نحو الكارثة، فإن هناك كل ما يبرر شعور اللبنانيين، على اختلاف مشاربهم، بالقلق على بلدهم، وضرورة أن يفعلوا شيئاً حيال ذلك. للأسف، قد يكون الأوان قد فات على إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء والعودة إلى سياسة عدم التدخل في الحرب السورية. لكن إذا كانت القوى السياسية المختلفة في البلاد لا تستطيع الاتفاق على ما ينبغي القيام به في سورية، فإن في وسعها على الأقل الاتفاق على مقاربة عقلانية حيال مأساة اللاجئين. إن تدفق هذا العدد الهائل من الناس سيشكل مشكلة جسيمة في أي مكان من العالم. أما في لبنان - بمؤسساته وبنيتة التحتية الهشة؛ وتوازناته السياسية والمذهبية الدقيقة؛ ونسيجه الاجتماعي المتوتر؛ واقتصاده المترجع؛ وهي عوامل أدت أزمة اللاجئين إلى مفاقمتها جميعاً - فإن هذه المشكلة تصبح كابوساً.

التوصيات

إلى الحكومة اللبنانية القادمة:

1. التركيز على أزمة اللاجئين وذلك من خلال:
 - أ. جعلها أولوية للبرنامج الوزاري القادم؛
 - ب. السعي للحصول على تمويل غربي وعربي إضافي.
2. القيام فوراً بتخصيص أية موارد مالية أو بشرية متاحة لمعالجة تدفق اللاجئين، حتى مع انتظار وصول مثل تلك المساعدة.
3. التأكيد على الالتزام بسياسة لبنان الترحيب باللاجئين.
4. وضع خطة طوارئ للتعامل مع تدفق جديد للاجئين، خصوصاً من دمشق، وذلك من خلال:
 - أ. التخطيط مع جميع الأحزاب السياسية لإقامة مخيمات لاجئين صغيرة؛
 - ب. تخصيص مناطق بعيدة عن الحدود يمكن أن تقام مثل تلك المخيمات عليها؛
 - ج. استكشاف وسائل ضمان سلامة المخيمات مع السلطات الأمنية والعسكرية من دون فرض إجراءات مفرطة في التدخل بشؤونهم؛
 - د. التنسيق مع السلطات المحلية والمجتمعات المحلية المضيفة بشأن إقامة هذه المخيمات وتخصيص الأموال لتحسين البنية التحتية في المدن والبلدات المعنية.

إلى حلفاء النظام السوري:

5. الامتناع عن إطلاق التصريحات السياسية المعادية للاجئين.
6. الموافقة من حيث المبدأ على إقامة مخيمات للاجئين.

إلى حلفاء المعارضة السورية:

7. الموافقة على معالجة التدايعات الأمنية المحتملة لمخيمات اللاجئين.

إلى مجتمع المانحين:

8. تزويد لبنان، ووكالات الأمم المتحدة وشركائها بنحو مليار دولار أميركي، وهو المبلغ الذي قدرت هذه الجهات بأنه ضروري لمعالجة أزمة اللاجئين حتى كانون الأول/ديسمبر 2013.

إلى بلدان الخليج، والولايات المتحدة والدول الأوروبية:

9. تسهيل إجراءات منح تأشيرات الدخول للسوريين الهاربين من الصراع من أجل تخفيف الضغوط على البلدان المجاورة، وخصوصاً لبنان.

إلى وكالات الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية:

10. منح المساعدات الإنسانية للأسر اللبنانية الأكثر حرماناً في مناطق الوجود المكثف للاجئين والأسر التي تستضيف اللاجئين، من أجل منع مزيد من التدهور في العلاقات بين اللاجئين والمجتمعات التي تستضيفهم.
11. إشراك المجتمعات المحلية اللبنانية في دعم اللاجئين السوريين وذلك بتنظيم برامج الإغاثة التطوعية.

بيروت/بروكسل، 13 أيار/مايو 2013

لا عزاء في القرب: السوريون في لبنان

I. مقدمة: إعادة رسم الخارطة

إن الصراع في سورية لا يتسبب فقط في مقتل عشرات الآلاف من الناس، وتدمير مجتمع وإزالة دولة، بل إنه ينتقل إلى بلدان مجاورة، ويزعزع توازنها الداخلي، ويعيد تعريف التفاعلات الجارية عبر الحدود ويعيد رسم الطبوغرافيا البشرية للمنطقة بشكل جوهري. على حد تعبير أحد المراقبين، فإن الحدود تصبح على نحو متزايد أقل صلة بالواقع وأكثر "سيولة".¹

في توصيف لمجموعات الأزمات نشر مؤخراً، فإن تركيا تستضيف أكثر من 300,000 لاجئ سوري، إضافة إلى جملة واسعة من المجموعات المسلحة المناهضة للنظام؛ ولكن الأسلحة أيضاً تعبر الحدود؛ كما أن الصراع الدائر في البلد المجاور قد فاقم من التوترات المذهبية في الداخل التركي، خصوصاً بين السنة والعلويين، وفي نفس الوقت غدّى المخاوف التركية حيال صعود حزب الاتحاد الديمقراطي في شمال سورية.²

ثمة تداعيات عميقة على الفضاء الجغرافي العراقي - السوري أيضاً. مع استمرار تعزيز التحالف الذي نشأ بحكم الأمر الواقع بين بغداد ودمشق، فإن السكان السنة العالقين بين الطرفين باتوا يبتعدون عن العاصمتين من جهة ويُنشئون أواصر أكثر قوة في ما بينهم من جهة أخرى؛ حيث أن المواطنين السنة في كلا البلدين تربطهما علاقة تتميز بالصراع مع سلطات الدولتين،³ وكلا المجتمعين يتسمان بطبيعة قبلية، وكلاهما شهدا تقدماً للإسلاميين الجهاديين في أوساطهما. في حين أن الإعلان عن اندماج جبهة النصرة في سورية والقاعدة في العراق تم نفيه بسرعة من قبل جبهة النصرة، فإن الإعلان أظهر رغم ذلك العلاقات المحتملة بين المتشددتين على جانبي الحدود.⁴ في هذه الأثناء، يذكر أن الحكومة العراقية تقدم الدعم المادي لنظيرتها في سورية، إضافة إلى السماح لإيران باستعمال مجالها الجوي لنقل الأسلحة، والمقاتلين الشيعة عبر الحدود لدعم نظام الأسد.⁵

كل ما حدث على الساحة السورية - التركية والسورية - العراقية حدث أيضاً على الساحة اللبنانية، كما شهدت بعض البلدان مثل تركيا ولبنان تدفقاً كبيراً للاجئين، وعلى نطاق أوسع بكثير. بات اللاجئين يشكلون نحو 10% من سكان لبنان، وعند إضافة العمال وآخرين (أفراد الطبقتين الوسطى والعلوية الذين انتقلوا إلى لبنان)، فإن عدد السوريين الذين يعيشون في لبنان يقفز إلى نحو مليون شخص مقارنة بالعدد الإجمالي لسكان البلاد البالغ 4 ملايين. كما في العراق، فإن المواطنين منقسمين بعمق؛ حيث ينزع السنة إلى دعم المعارضة السورية، في حين أن الشيعة، لا سيما حزب الله، يدعمون النظام على نحو متزايد. لقد شجعت الحدود القابلة للاختراق على عمليات التهريب؛ فقد عبر إسلاميون لبنانيون الحدود إلى سورية، في حين أن حزب الله أرسل مقاتلين لمساعدة النظام.

¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، نيسان/أبريل 2013.

² Crisis Group Europe Report N°225, *Blurring the Borders: Syrian Spillover Risks for Turkey*, 30 April 2013. يصعب تمييز حزب الاتحاد الديمقراطي عن شقيقه في تركيا حزب العمال الكردستاني. حول القضية الكردية، انظر تقرير مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط رقم 136، "أكراد سورية: صراع داخل الصراع"، 22 كانون الثاني/يناير 2013.

³ تظهر المواد المعروضة على صفحات الوسائط الاجتماعية ذات الشعبية والتي يديرها نشطاء سوريين وعراقيين إلى أي حد يُنظر إلى حكومتَي الأسد والمالكي على أنهما شريكتان في محور شيعي إقليمي بقيادة إيران. انظر www.facebook.com/Syrian.revolution and www.facebook.com/Iraqe.Revolution.

⁴ في 9 نيسان/أبريل 2013، نشر أبو بكر البغدادي، زعيم دولة العراق الإسلامية المرتبطة بالقاعدة شريط فيديو يعلن فيه أن جبهة النصرة، المجموعة السلفية الجهادية الأكبر في سورية ومجموعته ستندمجان، لتشكّلان "الدولة الإسلامية في العراق والشام". في اليوم التالي أصدر أبو محمد الجولاني زعيم جبهة النصرة تصريحاً أنكر فيه الاندماج ودافع عن قرار جبهة النصرة الامتناع عن إعلان دولة إسلامية. كما إنه أشاد بالبغدادي لتقديمه التمويل ومجموعة صغيرة من المقاتلين انضمت إلى مجموعته. رغم أن الجولاني أكد على الفصل بين جبهة النصرة ونظيرتها في العراق، فإنه أكد على علاقته بالشبكة العالمية للقاعدة وذلك بإعلان ولائه لزعم القاعدة أمين الظواهري. تصريح البغدادي موجود على الموقع www.youtube.com/watch?v=2HPQxA3catY, al-Jolani's at www.youtube.com/watch?v=gFu9Sq8qWls.

⁵ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين أمريكيين وفرنسيين، شباط/فبراير - نيسان/أبريل 2013؛ انظر أيضاً "Iran supplying Syrian military via Iraqi airspace", *The New York Times*, 4 September 2012; "John Kerry urges Iraq to help stop Iranian arm shipments to Syria", *The Guardian*, 24 March 2013; "Iraqi Shiite militants start to acknowledge role in Syria", Reuters, 10 April 2013.

لكن، وعلى عكس تركيا وإلى درجة أقل العراق، فإن لبنان يفتقر إلى دولة مركزية فعالة. إنه لا يمتلك الموارد الكافية لتلبية احتياجات اللاجئين. وقد توجب على حكومته المستقلة العمل بحذر، حيث مركز ثقلها (تحالف 8 آذار) مقرب من النظام السوري، في حين يسعى رئيس الوزراء للحفاظ على مسافة صحية تفصله عن الصراع.⁶ كما أن لبنان يعتمد في استقراره على التوازن الطائفي الهش جداً الذي انهار في الماضي غير البعيد عندما أخلّ آلاف الفلسطينيين بهذا التوازن. يؤدي تدفق اللاجئين السوريين إلى تفاقم جميع هذه المشكلات؛ فهو يبرز ويعمق عدم قدرة الدولة على العمل؛ ويهق مواردها المحدودة أصلاً؛ ويخاطر بإثارة ردود فعل عنيفة من خلال إعادة تأجيج المخاوف حيال التركيبة الطائفية للبلاد. كما أن نقاط الضعف الكامنة في لبنان تجعله أكثر عرضة لهجمات النظام السوري، حيث قامت دمشق مؤخراً بضرب أهداف داخل الحدود في محاولة لمنع تقديم المساعدة للمتمردين.⁷

تطرح أزمة اللاجئين السوريين عدداً كبيراً من التحديات على لبنان، كما يصف هذا التقرير. حتى الآن، ورغم هذه المصاعب، فإن بيروت حافظت على سياسة الحدود المفتوحة أمام السوريين والفلسطينيين المقيمين في سورية على حد سواء، وهو موقف أثنى عليه مسؤولو الأمم المتحدة والدبلوماسيون الغربيون.⁸ رغم ذلك، ينبغي أن يتساءل المرء إلى أي مدى يمكن أن يستمر هذا. وماذا سيحدث عندما يتوقف عن الاستمرار.

⁶ لقد تبنت الحكومة نظرياً سياسة النأي بالنفس، وسعت إلى عدم الانخراط في الصراع السوري والمحافظة على الحياد حياله في المؤسسات الدولية. لقد شكك منتقدو الحكومة بهذه السياسة. مسؤول رفيع في تيار المستقبل بقيادة سعد الحريري قال، "أعتقد أن علاقات لبنان بسورية منذ الانتفاضة تشكل انعكاساً للحكومة الموجودة في السلطة عند بدايتها - أي الحكومة التي كان يرأسها ميقاتي والتي كنا دائماً نعتبرها حكومة بقيادة حزب الله. رغم أن الحكومة كانت تزعم لفظياً بأنها تتبنى سياسة النأي بالنفس، فإن تلك السياسة لم تترجم للأسف إلى ممارسة عملية. طلبنا منها إرسال الجيش إلى الحدود، وأن تطلب من اليونيفيل [قوات الأمم المتحدة العاملة في لبنان] أن تساعد في ضبط على الحدود، وأن تحت حزب الله على عدم الانخراط في سورية. لم يحدث أي من هذا". مراسلة أجرتها مجموعة الأزمات بالبريد الإلكتروني، نيسان/أبريل 2013.

⁷ في آذار/مارس 2013، على سبيل المثال، استهدفت ضربات جوية بلدة عرسال في الشمال الشرقي. "Syrian planes bomb Lebanon border area", Al Jazeera English, 19 March 2013.

⁸ مفاوضات أجرتها مجموعة الأزمات مع مفوض الأمم المتحدة السامي لشؤون اللاجئين ومع مسؤولين في وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، ومع مسؤولين غربيين، بيروت، شباط/فبراير 2013.

II. تدفق هائل للاجئين

أ. السوريون في لبنان

في مطلع آذار/مارس 2013، وطبقاً للأمم المتحدة، وصل عدد اللاجئين السوريين المسجلين وأولئك الذين ينتظرون التسجيل في البلدان المجاورة إلى عتبة المليون.⁹ كان لبنان من بين البلدان الأكثر تأثراً؛ فبحلول 9 أيار/مايو 2013، كان 436,000 سورياً قد تم تسجيلهم أو كانوا ينتظرون التسجيل لدى مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين.¹⁰ إذا تم حساب اللاجئين (المسجلين وغير المسجلين)، والعمال السوريين (الذين يقدر عددهم بأكثر من 350,000) والعائلات الثرية بما يكفي لتندمج بشكل كامل في المجتمع المحلي، فإن السلطات اللبنانية تقدر أن العدد الإجمالي للسوريين في لبنان يتجاوز مليون، أي أكثر من 25% من عدد السكان البالغ 4 ملايين.¹¹

عدد اللاجئين الذي كان محدوداً نسبياً خلال السنة الأولى من الصراع في سورية، تصاعد عام 2012. منذ تشرين الأول/أكتوبر 2012 وهو يرتفع بسرعة تنذر بعواقب وخيمة؛ حيث يتم تسجيل 50,000 سوري إضافي كل شهر.¹²

يتبين من الأرقام التي نشرت في أواخر نيسان/أبريل 2013، أن أكبر مجموعة من الهاربين من الصراع قدموا من وسط سورية؛ حيث يقول 32% من اللاجئين المسجلين أنهم قدموا من حمص. القادمون من إدلب، وحلب، وريف دمشق وإلى حد أقل حماة يأتون في المرتبة الثانية من حيث مصادر التهجير. في ذلك الحين، كان اللاجئون من دمشق نفسها يشكلون 3.8% فقط من إجمالي عدد اللاجئين.¹³ رغم ذلك، فإن تصاعد العنف هناك، مصحوباً بقرب العاصمة من لبنان، يثير المخاوف بين المسؤولين وبين ممثلي الأمم المتحدة حول موجات جديدة من اللاجئين إذا وصلت المعارك إلى قلب العاصمة.

يتسم التوزيع الجغرافي للاجئين على وجه الإجمال بطابع مذهبي؛ حيث ينزع السنة إلى البحث عن ملاذ آمن في المناطق ذات الأغلبية السنية، في حين أن المسيحيين والعلويين يلجؤون إلى المناطق ذات الأغلبية المسيحية، وإلى درجة أقل، إلى المناطق الشيعية.¹⁴

اجتمع حوالي ثلث اللاجئين في شمال لبنان، وثلث آخر في وادي البقاع الشرقي، و 17% في بيروت وجبل لبنان المجاور، و 14% في جنوب لبنان.¹⁵

طبقاً لمسؤول في مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، فإن السنة يشكلون 95% من المسجلين لدى المفوضية. رغم أن 5% فقط ينتمون إلى الأقليات الطائفية، وبشكل أساسي العلويين والمسيحيين، من المرجح أن تكون الأعداد الفعلية أكبر؛ حيث ينزع أفراد الأقليات إلى عدم إبراز وجودهم وبالتالي يمتنعون عن التسجيل، كما أن العديد من المناطق المسيحية المتضررة تقطنها عائلات غنية نسبياً لا ترغب بالإعلان عن نفسها كلاجئين.¹⁶

⁹ "UN inter-agency response for Syrian refugees", UNHCR, Beirut, March 2013, www.unhcr.org/515a8fe89.html. See also "Number of Syrian refugees hit 1 Million, UN Says", *The New York Times*, 6 March 2013.

¹⁰ انظر data.unhcr.org/syrianrefugees/country.php?id=122. The number of Syrian refugees exceeds 431,000 in Jordan, 326,000 in Turkey, 144,000 in Iraq and 62,000 in Egypt. Ibid يتجاوز 431,000 في الأردن، و 326,000 في تركيا، و 144,000 في العراق، و 62,000 في مصر. المرجع السابق.

¹¹ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين لبنانيين، ومع اقتصاديين، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير 2013. www.almodon.com/Politics/Articles/- لبنان لم يعد يحتمل النازحين!

¹² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، بيروت، شباط/فبراير 2013.

¹³ "UNHCR registration trend for Syrians", UNHCR, 26 April 2013.

¹⁴ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع لاجئين سوريين، ومع مسؤول في مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، ومع عاملين اجتماعيين، بيروت، طرابلس، صيدا، البقاع، كانون الأول/ديسمبر 2012 - شباط/فبراير 2013. هناك بعض الاستثناءات، حيث يعيش بعض السنة في مناطق يسيطر عليها حزب الله، وخصوصاً العمال السوريين الذين أحضروا أسرهم معهم إلى أماكن عملهم. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع عمال سوريين، ومع عاملين اجتماعيين وسكان، بيروت، صيدا، بنت جبيل، كانون الأول/ديسمبر 2012 - شباط/فبراير 2013.

¹⁵ "UNHCR registration trend for Syrians", op. cit.

¹⁶ "تحجم الأقليات عن التعامل مع مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين. يخشى كثيرون منهم أن يُعتبروا غير مواليين أو أنهم خانوا النظام بهربهم. آخرون يشعرون بالقلق من أن يصبحوا عرضة لاستهداف السنة إذا اندلع العنف المذهبي في لبنان". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، بيروت، شباط/فبراير 2013. إضافة إلى ذلك، فإن الأقليات التي سعت دمشق لاستئصالها قد لا تشعر بأنها مهددة من قبل حلفاء وعلاء النظام في لبنان وبالتالي فهي أقل حاجة إلى الحماية الرسمية

أما وجود الفلسطينيين فأكثر وضوحاً. بحلول نيسان/أبريل 2013، كان 50,000 فلسطيني - لاجئون لمرتين، أولاً في سورية، ومن ثم في لبنان - قد سجلوا لدى وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا) في لبنان.¹⁷ لكن يبدو أن أعدادهم شهدت ارتفاعات كبيرة في كانون الأول/ديسمبر 2012، عندما اندلع القتال في مخيم اليرموك، وهو مخيم كبير للاجئين الفلسطينيين، ما دفع بالكثيرين من سكانه للهرب.

في بلد صغير تبلغ مساحته تقريباً 10,450 كيلو متراً مربعاً، يمكن تلمس وجود السوريين في جميع أوجه الحياة اليومية. تجع المقاهي بالسوريين واللبنانيين الذين يناقشون التطورات في البلدين. وباتت اللهجة السورية موجودة بوضوح في الشوارع، والمطاعم، والبقاليات ومراكز التسوق. الازدحام المروري، السيء أصلاً، أصبح أسوأ بشكل كبير. كما أن التسول في الشوارع، الذي كان شائعاً أيضاً قبل الصراع، ازداد بشكل كبير، حيث انضم العديد من النساء والأطفال السوريين إلى صفوف المتسولين.¹⁸

سوق استنجاز المنازل والشقق بات مشبعاً، ما تسبب في مشاكل للبنانيين والسوريين على حد سواء. السوريون من اللاجئين وغير اللاجئين يعيشون باكتظاظ في مساحات صغيرة، حيث ينضم القادمون الجدد إلى أبناء وطنهم السوريين أو إلى أصدقائهم اللبنانيين في هذه الأماكن الضيقة. بالنسبة للاجئين الفعليين، فإن الوضع أسوأ بالطبع؛ ففي مناطق مثل عكار، والبقاع وبعض أحياء طرابلس، حولوا المباني الأيالة للسقوط أو المدارس، أو المصليات، ومرائب السيارات وحتى حظائر الحيوانات إلى ملاجئ مؤقتة. مسؤول في مفوضية الأمم المتحدة للاجئين قال، "جميع الأماكن، حتى الأماكن المربعة، يشغلها اللاجئون. إنهم يعيشون على نحو متزايد في ظروف معيشية بالغة السوء وغير إنسانية".¹⁹

نتيجة لذلك، فإن ثمة شعوراً متنامياً بالقلق حيال اللاجئين، حتى بين أكثر اللبنانيين تعاطفاً.²⁰ لكن ثمة شكاوى في الاتجاه الآخر أيضاً؛ حيث يتهم العديد من السوريين اللبنانيين بعدم احترامهم، واستغلالهم وحتى بالاعتداء عليهم.²¹ من غير المفاجئ، والحال هذه، أن النزاعات، والمناوشات والحوادث الإجرامية ارتفعت وتيرتها جميعاً مؤخراً.²²

يمثل التمويل حالياً التحدي الأكثر حدة لوكالات الأمم المتحدة، والمنظمات الإنسانية، وحتى للدولة اللبنانية. في 9 نيسان/أبريل، حذرت مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين من أنها اقتربت من الوصول إلى "نقطة الانهيار"، في حين أن مسؤولاً في برنامج الأغذية العالمي قال: "في غضون شهر واحد، وبمستويات التمويل الحالية، فإن أكثر من 400,000 لاجئ سوري في لبنان لن يتلقوا المساعدات الغذائية".²³ وعلى نحو مماثل، فإن الأونروا، التي تقدم أيضاً الخدمات الأساسية للاجئين الفلسطينيين المقيمين في لبنان، عليها أن تواجه الآن مهمتين رئيسيتين أخريين تتمثلان في إعادة بناء مخيم نهر البارد الذي دُمّر عام 2007.²⁴ والتعامل مع تدفق الفلسطينيين من سورية - وبالتالي فهي تصارع للحصول على التمويل في وقت تعاني فيه الاقتصادات الغربية من الصعوبات.²⁵

التي تقدمها الأمم المتحدة. لم تشهد القرى والأحياء العلوية، التي يدافع عنها جيش النظام ومليشياته، عمليات تدمير واسعة النطاق كذلك التي تعرضت لها نظيراتها السنية.

¹⁷ مرسلات أجرتها مجموعة الأزمات بالبريد الإلكتروني مع المساعد الخاص لمدير الأونروا، أيار/مايو 2013.

¹⁸ ملاحظات ومقابلات لمجموعة الأزمات مع لبنانيين وسوريين، بيروت، طرابلس، عكار، البقاع، صيدا، كانون الأول/ديسمبر 2012 - شباط/فبراير 2013.

¹⁹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، بيروت، شباط/فبراير 2013.

²⁰ أحد سكان طرابلس قال، "أنا فعلاً أشعر بالأسف لما حدث لسورية والسوريين. إنه أمر يقطع القلوب لكن في بعض الأحيان لا أستطيع إلا أن أشعر بالانزعاج من وجودهم الضائع. إنه يؤثر في حياتنا اليومية. كل يوم تقريباً يطرق أحدهم الباب ويطلب المال". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، شباط/فبراير 2013.

²¹ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سوريين يسكنون في لبنان، بيروت، طرابلس، عكار، البقاع، كانون الأول/ديسمبر 2012 - شباط/فبراير 2013.

²² ملاحظات ومقابلات لمجموعة الأزمات مع لبنانيين وسوريين، بيروت، طرابلس، عكار، البقاع حزيران/يونيو 2012 - شباط/فبراير 2013.

²³ "UN may cut food aid to Syrian refugees due to cash shortage", Reuters, 9 April 2013.

²⁴ للمزيد حول مخيم نهر البارد، انظر تقرير مجموعة الأزمات رقم 117، "مازق لبنان مع الفلسطينيين: الصراع على نهر البارد"، 1 آذار/مارس 2012.

²⁵ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مدير الأونروا، بيروت، شباط/فبراير 2013.

ب. محاولات لبنان الشاقفة للاستجابة

لقد أبرزت أزمة اللاجئين - ومحاولات لبنان التكيف معها - حالات القصور والتردي في مؤسسات الدولة. في البداية، تجاهلت الحكومة المشكلة كلياً، وبدأت بمعالجتها فقط عندما ساء الوضع كثيراً وخرج عن نطاق السيطرة. استغرق الأمر حتى كانون الأول/ديسمبر 2012 قبل أن تتبنى الحكومة خطة شاملة لتقييم الاحتياجات والمتطلبات المالية.²⁶ استقالة رئيس الوزراء نجيب ميقاتي في آذار/مارس 2013²⁷ زادت في تعقيد الوضع، وأوقفت تنفيذ الخطة، التي ظلت دون تمويل. ما تزال المفاوضات حول تشكيل حكومة جديدة (يرأسها تمام سلام، الزعيم السني الذي يعدّ مقرباً من 14 آذار ولكن الذي يقبله تحالف 8 آذار أيضاً) مستمرة.

على وجه الإجمال، ورغم أن مؤسسات الدولة ليست غائبة تماماً،²⁸ فإن المجتمعات المضيفة وشبكات المجتمع المدني ومفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين تعتبر الجهات الرئيسية التي تتصدى لتلبية احتياجات اللاجئين السوريين.

إذا كانت محدودية القدرات، وشح الموارد والافتقار إلى الخبرة تساعد في تفسير تأخر بيروت في معالجة أزمة كانت متوقعة،²⁹ فإن السياسة ربما لعبت دوراً أكبر في ذلك. منتقدو ميقاتي اتهموا حكومته باتياع خط النظام السوري والتجاهل المتعمد للقضية أو التقليل من جسامتها.³⁰ ناشط سوري قال إن "الإقرار بوجود اللاجئين كان يرقى إلى اتهام الأسد بتهجير شعبه"³¹؛ وفي الحد الأدنى، كان يعني تنفيذ مزاعم نظامه بأنه يعالج الوضع باقتدار وأن عودة الهدوء كانت قاب قوسين أو أدنى.

كما أن الانقسامات داخل السلطة التنفيذية أسهمت في ذلك الشلل - في هذا المجال كما في معظم المجالات الأخرى.³² في حين أن ميقاتي كرر التزام حكومته بمساعدة اللاجئين - وهو تعهد أكدّه أيضاً الرئيس ميشيل سليمان ووزراء مقربين من الزعيم الدرزي وليد جنبلاط - أصر آخرون على الحاجة لوقف تدفق اللاجئين بدلاً من إدارة شؤونهم. وكان هذا على وجه الخصوص موقف وزير الخارجية حينذاك، الذي كان يتمتع بعلاقات وثيقة بالنظام السوري، وكذلك موقف أعضاء الحكومة المرتبطين بميشال عون، الزعيم المسيحي المتحالف مع حزب الله.³³ في شباط/فبراير 2013، قال أحد المسؤولين:

حتى وقت قريب، لم يكن بالإمكان التوصل إلى قرار حيال مسألة اللاجئين. لم تتمكن الأطراف المشاركة في الحكومة من اعتماد مقاربة موحدة. بدلاً من ذلك، فإنهم دفنوا رؤوسهم في الرمال، على أمل أن تتلاشى المشكلة من تلقاء ذاتها. عند تحوّل المشكلة نحو الأسوأ فحسب شعروا بأنهم مجبرون على التوصل إلى تفاهم.³⁴

كان لهذا التأخر في اتخاذ القرار تداعيات خطيرة، يبدو بعضها غير قابل للعكس. على سبيل المثال، توقفت السلطات عن مراقبة عمليات وصول اللاجئين عام 2011، ونتيجة لذلك فإنها تواجه الآن مشكلة تتبع عدد كبير من الأفراد المنتشرين في أكثر من 1,100 موقع في أنحاء مختلفة من البلاد.³⁵ بالمقابل، فإن غياب هذه

²⁶ انظر "استجابة حكومة لبنان لأزمة العائلات السورية المهجرة"، رئاسة مجلس الوزراء، كانون الأول/ديسمبر 2012.

²⁷ كان ميقاتي قد أصر على التجديد للمدير العام لقوى الأمن الداخلي أشرف ريفي، الذي يعتبر في أوساط اللبنانيين السنة أحد الشخصيات النادرة المتعاطفة معهم وذات الثقل الكبير في القطاع الأمني ويعد أيضاً إحدى العقبان الأخيرة أمام الهيمنة الكاملة لحزب الله على هذا القطاع. عندما رفض حزب الله وحلفاؤه هذا الطلب، قدم استقالته فوراً.

²⁸ وتتضمن هذه الجهات الهيئة العليا للإغاثة، وهي هيئة تابعة لرئيس الوزراء ومهمتها التعامل مع الحالات الطارئة، إضافة إلى وزارات الشؤون الاجتماعية، والتعليم والصحة العامة. تقوم الهيئة العليا للإغاثة أحياناً بتوزيع مساعدات عينية وتوفير المأوى لعدد محدود من اللاجئين؛ وتغطي بالتعاون مع وزارة الصحة العامة نفقات المستشفيات بالنسبة للمدنيين الجرحى، رغم أنها تواجه أحياناً نقصاً في التمويل يجبرها على وقف التغطية الصحية. سمحت وزارة التربية للطلاب السوريين الالتحاق بالمدارس العامة. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين لبنانيين، بيروت، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير 2013. انظر "لبنان يعلق تمويل معالجة الجرحى السوريين"، رويترز، 11 تموز/يوليو 2012؛ "لبنان: الطلاب السوريون يجلبون الدعم للمدارس العامة"، الأخبار، 12 شباط/فبراير 2013.

²⁹ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين لبنانيين، بيروت، شباط/فبراير 2013.

³⁰ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في تيار المستقبل و 14 آذار، ومع نشطاء لبنانيين وسوريين، طرابلس، بيروت، صيدا، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير 2013. تيار المستقبل ذو الأغلبية السنية، والذي يقوده سعد الحريري، هو المكون الرئيسي في تحالف 14 آذار للأحزاب والمنظمات التي كانت تعارض الوجود السوري في لبنان.

³¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط سوري، طرابلس، شباط/فبراير 2013.

³² انظر تقرير مجموعة الأزمات رقم 132، "توازن هش: لبنان والصراع في سورية"، 22 تشرين الثاني/نوفمبر 2012.

³³ انظر "Mikati says Lebanon committed to helping Syrian refugees", *The Daily Star*, 28 November 2012; "Mansour calls for halting Syrian refugees influx", LBCgroup, 20 December 2012.

³⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول لبناني، بيروت، شباط/فبراير 2013.

³⁵ طبقاً لممثل مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، "في البداية كانت الحكومة تشتت في تسجيل اللاجئين السوريين من خلال الهيئة العليا للإغاثة، لكنها توقفت عن ذلك عام 2011 مع تجاوز أعداد اللاجئين قدرتها على تسجيلهم". مقتبس في "لبنان

المعلومات الأساسية عوّذ وضع اللاجئين والمنظمات المكلفة بمساعدتهم. معظم اللاجئين، الذين أجبروا على الهرب بسبب الصدمات العنيفة، تركوا ممتلكاتهم وراءهم وأنفقوا ما تبقى لديهم من مال على النقل. لدى وصولهم، لم يتلقوا مساعدات أو إرشادات تذكر؛ والعديد من الأسر المعتمدة قضت عدة ليالٍ في الشوارع قبل أن تتمكن المنظمات الإنسانية من العثور عليها والاعتناء بها. إحدى اللجان قالت:

غادرت بلدتي تحت القصف الشديد. لم أفكر في شيء حينها. أخذت أطفالتي الثلاثة وهربت. أخيراً، وصلت إلى طرابلس [في شمال لبنان]. وفجأة أدركت أنني كنت في مواجهة المجهول. لم أعرف ماذا أفعل. قضيت ليلتين في الشارع مع أطفالتي الثلاثة، وأحدهم رضيع، إلى أن قدم بعض المحسنين المساعدة لنا.³⁶

الحق غياب آلية لتحديد ومراقبة اللاجئين الضرر بتوزيع المساعدات؛ ففي عدة مناطق، حيث تجاوزت الاحتياجات القدرات المحلية، سرعان ما استنفدت الموارد المتاحة. يشير العاملون في مجال تقديم المساعدات إلى أنه وبالنظر إلى التوزيع العشوائي للاجئين في البلاد، كان هناك حاجة لقدر أكبر من الموارد مما لو تم تجميعهم وفقاً لخطة مرسومة مسبقاً.³⁷

على وجه الإجمال، فإن أزمة اللاجئين فاقمت من المشاكل البنوية الموجودة أصلاً، وشكلت ضغطاً على موارد الدولة دفعتها إلى نقطة الانهيار. مسؤول لبناني شرح قائلاً:

إننا نواجه مشاكل على جميع المستويات. موارد الدولة شحيحة والبنية التحتية مهترئة في العديد من المناطق. إنها أسوأ من أن تكفي لتلبية الاحتياجات الأساسية لسكانها. أما مع تدفق اللاجئين، فإن شبكات المياه والصرف الصحي التي صممت أصلاً لتلبية احتياجات 10,000 شخص تستعمل حالياً من قبل ضعف ذلك العدد. أعداد الطلاب تضاعفت في بعض المدارس العامة التي كانت أصلاً تقتصر على مرافق أساسية. المستشفيات تعمل بأكثر بكثير من طاقتها الاستيعابية، وحتى سجوننا لا تستطيع استيعاب نزلاء جدد. لم تكن نستطيع تلبية احتياجات اللبنانيين، ناهيك عن السوريين.³⁸

كما أن تركيبة الحكومة - التي تتكون بشكل خاص من أعضاء ما يسمى تحالف 8 آذار من الأحزاب المقربة من سورية³⁹ - كانت مكلفة أيضاً في هذا المجال. كان يمكن الحصول على المساعدات الدولية بسهولة أكبر لو كانت الحكومة أكثر قرباً من الغرب أو من بلدان الخليج العربي، وأكثر انسجاماً مع سياسات هذه الدول حيال سورية. رئيس منظمة إسلامية محلية تعمل مع اللاجئين قال: "يفضل المانحون في الخليج تقديم أموالهم لمنظمات معادية للنظام يتقون بها أو إلى الأمم المتحدة".⁴⁰ تصريحات المسؤولين اللبنانيين التي عبرت في بعض الأحيان عن دعم النظام السوري وفي حالات أخرى عن دعم للمعارضة البحرينية (ذات الأغلبية الشيعية) لم تسهم في تشجيع بلدان الخليج على إظهار كرمهم.⁴¹ عندما استقال ميقاتي في 22 آذار/مارس، لم يكن لبنان قد تمكن من جمع أي من مبلغ 180 مليون دولار، وهو المبلغ الذي كانت الحكومة قد قدرت أنه ضروري لمعالجة الأزمة في كانون الأول/ديسمبر 2012.⁴²

يطلب 180 مليون دولار لمساعدة اللاجئين السوريين"، روبرت، 4 كانون الثاني/يناير 2013. مقابلة هاتفية أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد مستشاري ميقاتي، نيسان/أبريل 2013.

³⁶ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع لاجئ سوري، طرابلس، شباط/فبراير 2013.

³⁷ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع عاملين في منظمات غير حكومية، طرابلس، بيروت، صيدا 2013.

³⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول لبناني يعمل على قضية اللاجئين، بيروت، شباط/فبراير 2013.

³⁹ يشير الاسم إلى المظاهرة الكبرى التي نظمتها الأحزاب اللبنانية الصديقة لسورية في 8 آذار/مارس 2005، للتعبير عن امتنانها لدمشق. ويضم التحالف الحزبين الشيعيين الرئيسيين، حزب الله وأمل، وأحزاب أخرى صديقة لسورية. التيار الوطني الحر، المسيحي الذي يقوده ميشيل عون، انضم إلى التحالف في أعقاب تحالفه مع حزب الله عام 2006.

⁴⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع رئيس منظمة إسلامية عاملة مع اللاجئين، طرابلس، شباط/فبراير 2013.

⁴¹ وزير الخارجية عدنان منصور، وهو أحد المساعدين المقربين من نبيه بري، رئيس المجلس النيابي المقرب من سورية، خرج عن السياسة الرسمية بدعوة الجامعة العربية إلى سحب قرارها القاضي بتعليق عضوية سورية. موقفه هذا تعرض لانتقادات قاسية من بلدان الخليج العربية. وفي سياق مماثل، فإن ميشيل عون استنقذ بلدان الخليج عندما علّق قائلاً: "من المؤسف أن ثورة سلمية [في البحرين]، تعرض للقمع منذ ثلاث سنوات، ولم تتلق اعترافاً كافياً من قبل العالم". انظر صحيفة/النهار، 9 آذار/مارس 2013؛ مجلس التعاون الخليجي يبعث برسالة احتجاجية على تصريح عون"، يا لبنان، 18 شباط/فبراير 2013.

⁴² مقابلة هاتفية أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد مستشاري ميقاتي، نيسان/أبريل 2013. تلقت الحكومة تبرعات عينية فحسب. بحلول 22 نيسان/أبريل، كانت وكالات الأمم المتحدة وشركاؤها قد تلقت 128 مليون دولار من أصل 267 مليون قدر أنه المبلغ المطلوب حتى حزيران/يونيو 2013. في 28 أيار/مايو 2013، من المتوقع أن تقوم حكومة تصريف الأعمال، ووكالات الأمم المتحدة وشركاؤها بالكشف عن "خطة الاستجابة الإقليمية للأزمة السورية" في جنيف. لم يتم وضع اللامسات الأخيرة على الخطة بعد، رغم أنها تقدر على ما يبدو أن ثمة حاجة لأكثر من مليار دولار لتغطية احتياجات اللاجئين حتى كانون الأول/ديسمبر 2013. تعكس الأرقام الجديدة ارتفاع عدد اللاجئين السوريين واللاجئين الفلسطينيين الذين كانوا يقيمون في سورية واحتياجات المجتمعات المحلية التي تستضيف اللاجئين. مراسلة أجرتها مجموعة الأزمات بالبريد الإلكتروني مع مسؤول في مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، أيار/مايو 2013؛ "Syria Regional Response Plan funding update", 22 April 2013, at www.data.unhcr.org/syrianrefugees/regional.php.

كما أن تركيبة الحكومة أضرت بالعلاقات مع العديد من اللاجئين. عدد كبير من السوريين، الذين يعتبرون الحكومة متحالفة مع دمشق، كانوا يخشون الإفصاح عن أسمائهم وأماكن سكنهم لسلطات الدولة خوفاً من التعرض لإجراءات انتقامية. عندما عبرت شخصيات تنتمي إلى تحالف 8 آذار الذي يقوده حزب الله عن عداتها اتجاه اللاجئين،⁴³ أو عندما كان يتم اعتقال وترحيل النشطاء المناهضين للنظام المقيمين في لبنان،⁴⁴ تفاقمت هذه المخاوف. فبدلاً من التسجيل لدى مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين - التي ينبغي أن تعمل بالشراكة مع الدولة اللبنانية - سعى كثيرون للحصول على المساعدة من المنظمات غير الحكومية المحلية وشبكات المساعدة الأخرى بدلاً من ذلك. حتى بعض العاملين في المنظمات غير الحكومية لم يشعروا بالارتياح حيال تبادل المعلومات مع السلطات، سواء لأسباب أمنية أو استجابة لتوسلات اللاجئين القلقين.⁴⁵ بالمقابل، فإن افتقار الحكومة للمعلومات عزز من شكوكها ومخاوفها بشكل عام. أحد المسؤولين قال، "لا نعرف أين يقيم معظم اللاجئين، وليس لدينا الوسائل لمراقبة تحركاتهم. ببساطة، لقد فقدنا السيطرة".⁴⁶

⁴³ وزير الخارجية اللبناني قال، "اللاجئون السوريون الذين يهربون من الصراع في بلدهم لا ينبغي أن يفكروا بدخول لبنان، حيث أن قدرته على استيعاب اللاجئين محدودة. يمكن للأسر السورية العودة إلى المدن السورية البعيدة عن أماكن القتال، فليبنان لا يستطيع احتواء عدد كبير من اللاجئين... ينبغي أن تركز السلطات اللبنانية على السيطرة على الحدود"، كما قال وزير الطاقة: "عندما نقول إننا لا نريد لاجئين سوريين وفلسطينيين، فإننا نفعل ذلك لأنهم يأخذون أماكننا". وزير الخارجية اللبناني: "على اللاجئين السوريين تحاشي لبنان"، *الآن*، 20 كانون الأول/ديسمبر 2012؛ جبران باسيل: "امنوا اللاجئين من دخول لبنان"، *الأخبار*، 24 كانون الأول/ديسمبر 2012.

⁴⁴ انظر، على سبيل المثال، *The Daily*، "Deportation of anti-regime Syrian creates political storm"، 3 August 2012. ناشط في مجال حقوق الإنسان أوضح قائلاً: "رغم أن هذه الممارسات مثيرة للقلق فإنها لا تجري بشكل منهجي وتظل استثناءً على القاعدة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، أيلول/سبتمبر 2012.

⁴⁵ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع ممثلين لمنظمات عاملة مع اللاجئين السوريين، طرابلس، بيروت، صيدا، شباط/فبراير 2013.

⁴⁶ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول لبناني، بيروت، شباط/فبراير 2013.

III. الأبعاد السياسية لقضية اللاجئين

لا تشكل قضية اللاجئين مشكلة إنسانية بحته بالنسبة للبنان؛ بل أفرزت استقطاباً سياسياً حاداً. ينظر معظم اللبنانيين إلى الصراع الدائر في البلد المجاور من خلال منظور مذهبي، وبالتالي فإن مواقفهم حيال اللاجئين طغت عليها منذ البداية الاعتبارات المذهبية، إضافة إلى الآثار الأمنية للصراع وتداعياتها على السياسات المحلية المستقبلية.

أ. اللاجئين في المناطق "الصديقة"

سعى معظم اللاجئين للعثور على مأوى في المناطق ذات الأغلبية السنية، ووجدوا ذلك المأوى، وهي المناطق التي اعتبروها الأكثر ترحيباً بهم.⁴⁷ رغم ذلك، فإن وجود أعداد هائلة منهم لم يمر دون مشاكل، وبمرور الوقت، بات وبشكل متزايد يثير مشاعر مختلطة. في المراحل الأولى، كان السوريون يلجؤون إلى عكار وطرابلس في شمال لبنان؛ لكن مع انتشار الحرب إلى مناطق متاخمة لسهل البقاع في الشرق، سعوا للعثور على مأوى في قرى السنية. وهناك تلقوا دعماً كبيراً وحتى حرارة في الاستقبال؛ إضافة إلى مشاعر الشفقة، فإن المجتمعات المحلية المضيفة لهم كانت تعتقد بأنها منخرطة في نفس المعركة وبالتالي تشاطر هؤلاء نفس المصير. أحد سكان وادي خالد، وهي قرية حدودية في شمال عكار، قال، "إن تحرير سورية من الأسد يرقى إلى تحرير لبنان من الأسد وحلفائه اللبنانيين. إن مساعدة اللاجئين هو أقل ما يمكن أن نسهم به في هذه المعركة".⁴⁸ إلا أن ما توقعته المجتمعات المحلية أن يكون وضعاً مؤقتاً استمر لفترة طويلة، ومع وصول أعداد متزايدة من اللاجئين وتزايد احتياجاتهم بشكل مستمر، باتت عملية الاستضافة أكثر توتراً، وأصبح الضيوف الذي تم الترحيب بهم في البداية أكثر من عبء.

لا شك أن العامل الأكثر أهمية هو العامل الاقتصادي؛ حيث أن المناطق التي تزوي اللاجئين هي من أكثر المناطق فقراً، وهي من المناطق المهمشة تقليدياً في البلاد حيث يعيش سكانها الأصليون أنفسهم في معظم الأحيان في ظروف بانسة.⁴⁹ رغم الإرادة الطيبة، فإن قدرتها على التكيف مع التدفقات الهائلة للاجئين كانت مؤقتة في أفضل الأحوال. وفي الوقت ذاته، شعر سكان هذه المناطق بشيء من الاستياء من الاهتمام والمساعدات التي قدمت للاجئين من قبل المنظمات اللبنانية والدولية، وهو ما يتناقض بشكل صارخ مع تاريخهم الحافل بالإهمال. أحد سكان عكار عبر عن تصور يشاطره فيه كثيرون، رغم المبالغة قائلاً، "إن اللاجئين يعيشون في ظروف أفضل من ظروفنا. مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين والمنظمات الخيرية تلبي جميع احتياجاتهم. إنهم يحظون بالمأوى، والطعام ويتلقون مواداً أخرى؛ ويذهب أطفالهم إلى المدارس في حين كان علي أن أخرج أولادي من المدرسة لأنهم لا يمكن من إطعام أسرتي".⁵⁰

بشكل عام، وكما وصفت مجموعة الأزمات من قبل، فإن الاقتصاد اللبناني عانى من اضطرابات محلية وإقليمية متزايدة، وكذلك من التبعات الخاصة بالصراع في سورية.⁵¹ ومرة أخرى، فإن المناطق التي استضافت الأعداد الأكبر من اللاجئين تحملت العبء الأكبر لهذه التداعيات السلبية: ارتفاع التضخم، والتنافس على فرص العمل، وتلاشي بعض الأنشطة المربحة، وإعادة توجيه التمويل الأجنبي من لبنان إلى جاراته والأعمال الانتقامية السورية. أحد الخبراء الاقتصاديين شرح ذلك قائلاً: "هناك العديد من الأسباب للأزمة الاقتصادية. وتشمل هذه الأسباب تراجع الدخل الناتج من السياحة إضافة إلى خسارة سورية كسوق ومعبر ترانزيت للمنتجات اللبنانية. وفي الوقت نفسه، فإن تدفق اللاجئين أدى إلى ارتفاع هائل في الطلب على السلع الأساسية والسكن في مناطق معينة؛ الأمر الذي ساعد عليه تقديم المنظمات الدولية والعربية للمساعدات النقدية

⁴⁷ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع لاجئين سوريين، طرابلس، عكار، عرسال، كانون الثاني/يناير 2012 - شباط/فبراير 2013.

⁴⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد السكان الذين يستضيفون أسراً سورية، وادي خالد، آذار/مارس 2012.

⁴⁹ طبقاً لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، فإن عكار ووادي البقاع هي المناطق الأفقر في لبنان. على نحو مماثل، فإن معظم مناطق طرابلس التي تزوي اللاجئين تعاني من ظروف اجتماعية - اقتصادية صعبة. انظر www.undp.org.lb/WhatWeDo/poverty.cfm. Crisis Group observations, Akkar, Bekaa, Tripoli, January-February 2013. ملاحظات لمجموعة الأزمات، عكار، البقاع، طرابلس، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير 2013.

⁵⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد سكان عكار، كانون الثاني/يناير 2013.

⁵¹ "من بين التبعات الاقتصادية الأكثر أهمية [للاقتصاد السوري على لبنان] تراجع الصادرات اللبنانية إلى سورية - التي تعد المعبر الرئيسي إلى خارج لبنان؛ والزيادة الكبيرة على أسعار عدد من السلع الأساسية؛ التي كان الكثير منها يستورد أو يهرب من سورية؛ وتراجع الواردات السياحية بنسبة 80% في الأشهر التسعة الأولى من عام 2012 بسبب طغيان الشعور بعدم الاستقرار؛ وتراجع الاستثمار في القطاع العقاري بنسبة 20%؛ وتراجع النمو في الناتج المحلي الإجمالي من 8% بين عامي 2007 و 2010 إلى أقل من 2% عام 2012". تقرير مجموعة الأزمات، "توازن هش"، مرجع سابق، ص. 27-28.

للاجئين. إلا أن القوة الشرائية لمعظم المجتمعات المحلية ظلت هي نفسها بشكل أساسي؛ بل إنها تناقصت في بعض الحالات بسبب الركود الاقتصادي الذي تسببت به الأزمة السورية.⁵²

بمرور الوقت، بات العديد من اللبنانيين يشعرون بتهديد العمالة السورية، التي كانت تاريخياً أرخص من نظيرتها المحلية وباتت أرخص بكثير الآن مع تدفق هذه العمالة بأعداد كبيرة وفي ظروف صعبة.⁵³ مؤرخ من طرابلس قال، "تقليدياً، يعمل السوريون في البناء والزراعة. الآن، توسعت المنافسة إلى قطاعات أخرى. أحد الأمثلة على ذلك أن السوريون حلوا محل العديد من العمال اللبنانيين في مجال صناعة الأثاث والتنجيد.⁵⁴ كان بعض اللبنانيين يجنون بعض المال من عمليات التهريب ذات العمالة المكثفة عبر الحدود؛ إلا أن ذلك أيضاً تراجع بسبب تصاعد العنف. الأموال الخليجية، لا سيما السعودية التي كانت تذهب إلى لبنان - لا سيما بعد أزمتها السياسية عام 2005 - تم تحويلها إلى سورية، النقطة الساخنة الأكثر أهمية في المرحلة الراهنة.⁵⁵ أخيراً، فإن بعض المناطق دفعت ثمناً سياسياً لإيواء اللاجئين. يتهم سكان هذه المناطق بإيواء المقاتلين سواء من قبل المسؤولين اللبنانيين المقربين من سورية أو من قبل السلطات في دمشق، وبالتالي يعانون من الاستياء العام منهم، ومن الإجراءات الأمنية المشددة، ويعانون على نحو متزايد من عمليات القصف والغارات الجوية التي يشنها الجيش السوري عبر الحدود.⁵⁶

الأثر الإجمالي لهذه التطورات هو أنه حتى بين المجتمعات المحلية الأكثر تعاطفاً مع محنة اللاجئين، فإن المشاعر باتت أكثر توتراً. تبقى الكراهية حيال النظام السوري شديدة وتنتزع للطغيان على غيرها من المشاعر. رغم ذلك، فإن اللاجئين لم يعد مرحباً بهم كثيراً؛ لا سيما وأن هناك غضباً متصاعداً من أنهم يجتذبون النيران السورية بتقديم الملاذ والدعم والغطاء للمتمردين المناهضين للنظام.⁵⁷

هذه التوترات ليست جديدة؛ فسواء خلال الحرب الأهلية اللبنانية أو بعدها، فإن الوجود العسكري السوري كان ثقباً على نحو خاص في المناطق السنية (والمسيحية). ثمة ندوب لجراح عميقة في الذاكرة الجمعية للمنطقة نشأت عن نمط متكرر من العنف العشوائي، والابتزاز والإذلال الذي كان يمارسه عناصر الأمن والجنود الموجودون على نقاط التفتيش، ناهيك عن الانتهاكات التي كانت ترتكب خلال المعارك - والتي كان يرتكبها أحياناً الجنود السنة.⁵⁸ أحد سكان طرابلس قال، "اليوم السوريون يعارضون نظامهم. لكن عندما كانوا في لبنان، وكان اللبنانيون يقتلون ويذلون من قبل السوريين، فإنهم كانوا ينتمون إلى ذلك النظام."⁵⁹ بمرور الوقت، فإن ذكريات الماضي مصحوبة بمشاكل الحاضر يمكن أن تضع اللاجئين في وضع هش. أحد الزعماء المحليين في عكار شرح قائلاً:

العلاقات بين السوريين ومضيفهم أبعد ما تكون عن المثالية. إنهم يتأثرون بالمشاكل الاقتصادية، والاختلافات الثقافية والتاريخ المتباين للعلاقات السورية - اللبنانية. بعض اللبنانيين يشعرون بأنهم يدفعون ثمناً باهظاً لإيواء اللاجئين.⁶⁰

⁵² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع اقتصادي لبناني، بيروت، تموز/يوليو 2012.
⁵³ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع عمال وأرباب عمل سوريين ولبنانيين، بيروت، طرابلس، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير 2013.

⁵⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مؤرخ لبناني، طرابلس، شباط/فبراير 2013.
⁵⁵ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في تيار المستقبل، وممثلين لمنظمات غير حكومية، بيروت، طرابلس، كانون الثاني/يناير 2012 - شباط/فبراير 2013.

⁵⁶ على سبيل المثال، فإن وزير الدفاع اللبناني المقرب من سورية اتهم بلدة عرسال شرق لبنان بإيواء مقاتلين من القاعدة. مقتبس في صحيفة/الأخبار، 27 كانون الأول/ديسمبر 2011. في شباط/فبراير 2013، وفي بلدة عرسال الشرقية، حاول الجيش اللبناني اعتقال أحد الإسلاميين الذين يرتبطون بعلاقات وثيقة مع المعارضة المسلحة؛ اتهم بالانخراط في الإرهاب وقتل، ما أدى إلى صدامات مسلحة مع السكان المحليين. وقتل في الصدامات جنديان في الجيش اللبناني. في أعقاب هذا الحادث، فرض الجيش إجراءات أمنية مشددة. انظر "Several residents arrested as army draws tight dragnet around Aarsal", Naharnet, 2 February 2013; "Aarsal ambush kills two Lebanese soldiers hunting wanted fugitive", The Daily Star, 2 February 2013. On Syrian attacks, see "Syrian jet flies into Lebanon, fires missile", Reuters, 3 April 2013; "Shells fired from Syria kill Lebanese", The Associated Press, 7 July 2012; "Syrian troops shell Lebanese village: officials", Agence France-Presse, 31 August 2012; "Shells from Syria land on Lebanon border villages: residents", The Daily Star, 13 April 2013.

⁵⁷ لمزيد من التفاصيل، انظر تقرير مجموعة الأزمات، "توازن هش"، مرجع سابق، ص. 2.
⁵⁸ انظر تقارير مجموعة الأزمات رقم 96، "سياسات لبنان: الطائفة السنية وتيار المستقبل، 26 أيار/مايو 2010، ص. 5-7؛ ورقم 78، "المعادلة اللبنانية الجديدة: الدور المحوري للمسيحيين"، 15 تموز/يوليو 2008، ص. 2-4.

⁵⁹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، شباط/فبراير 2013.
⁶⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، عكار، شباط/فبراير 2013. أحد مستشاري رئيس الوزراء ميقاتي أقر بالمشكلة قائلاً: "نحن نسعى لإقامة مراكز مؤقتة لإيواء اللاجئين عند وصولهم، قبل توزيعهم على مناطق أخرى. من الطبيعي أن تكون هذه المراكز في المناطق

من جهتهم، فإن العديد من السوريين يشكون من أن اللبنانيين يسيئون معاملتهم وينذونهم. أحدهم اشتكى قائلاً:

لا يكفي أن بلدنا في حالة حرب - وهي حرب خسرها فيها كل شيء: أفراد أسرنا، ومنازلنا، وممتلكاتنا وعملنا - وفوق كل ذلك فإننا نشعر بالإذلال، ونتسول الطعام والمأوى. نتعرض للإهانة وللتعليقات العنصرية بشكل يومي - وهذا من قبل أشخاص يعتبرون أنفسهم أصدقاء للثورة.⁶¹

مسؤول لبناني قال، "ثمة حوادث كثيرة تحدث في المناطق التي تستضيف اللاجئين دون أن يتم الإبلاغ عنها. نحاول إبقاء هذه الحوادث بعيداً عن الضوء كي لا نفاقم من المشكلة".⁶²

تعد هذه الصعوبات من أعراض العلاقة المعقدة تاريخياً بين اللبنانيين والسوريين والتي تتجاوز الاعتبارات المذهبية أو السياسية البحتة. كلا الطرفين يتحملان عبء تاريخ مشترك اتسم أحياناً بالنزاع، إضافة إلى تصورات ترسخت بعمق جراء الوجود السوري الطويل وثقل الوطأة في لبنان على مدى العقود الماضية. السوريون، كما يراهم العديد من اللبنانيين، يقعون في تصنيفات واسعة تتمثل في العمال اليدويين غير المتعلمين ومتدنيي الدخل؛ والمجرمين؛ وعناصر الأمن والجنود الذين يرتكبون الانتهاكات. لقد عزز عدة مسؤولين لبنانيين من هذا التحامل، واستغلوا وركزوا على هذه الأشكال النمطية، وأججوا الاستياء الشعبي والشكوك حيال اللاجئين واستعملوا ككبش فداء لمواطن عجزت الدولة الأكثر هيكلية⁶³ تشكل مثل هذه التصورات خلفية لا مناص منها لأزمة اللاجئين، التي تنطوي على مفارقة أيضاً في أنها تقرب بين مجتمعين في نفس اللحظة التي تزرع فيها بذور سوء الفهم المتبادل وعلى نطاق أوسع.

ب. حزب الله والطائفة الشيعية

رغم دعم حزب الله للنظام السوري، وعلى عكس بعض شركائه في التحالف، فإنه حرص على التعبير عن موقف مرحب نسبياً بالسوريين الهاربين من النزاع. كما أنه قدم مساعدات عينية، ورعاية صحية ومأوى للاجئين في البقاع وبيروت.⁶⁴ لقد أصر الأمين العام للحزب، حسن نصر الله، على أن البلاد ينبغي أن "تتعامل مع وجود اللاجئين السوريين من منظور إنساني بحت".⁶⁵ مع وصول المناطق ذات الأغلبية السنية إلى نقطة الإشباع، وعدم قدرتها على رعاية عدد أكبر من اللاجئين، فإن عدداً متزايداً منهم "نحو 60,000 بحلول نهاية نيسان/أبريل"⁶⁶ توجهوا إلى جنوب لبنان، معقل حزب الله؛ وهناك، قام الحزب الشيعي بتعبئة الشبكات الاجتماعية والبلديات الخاضعة لسيطرته لتقديم المساعدة.⁶⁷

رغم ذلك، فإن الأولوية الأمنية الأولى للحزب هي منع اللاجئين وشبكات الدعم المرتبطة بهم من تشكيل غطاء للأنشطة المناهضة للأسد، مثل تهريب الأسلحة والمقاتلين. جدير بالذكر أن حزب الله يراقب على نحو وثيق، في المناطق الخاضعة لسيطرته، المنظمات التي تقدم الخدمات للاجئين، ويقوم في بعض الأحيان بتقليص الأعمال التي تقوم بها. مسؤول رفيع في حزب الله قال:

السنية. لكن، في العديد من القرى، فإن المجتمعات المحلية، والقادة المحليون وأعضاء المجلس النيابي رفضوا إقامة تلك المراكز".
مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، شباط/فبراير 2013.

⁶¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع لاجئ سوري، طرابلس، كانون الأول/ديسمبر 2012.

⁶² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول لبناني، بيروت، شباط/فبراير 2013.

⁶³ مروان شربل، وزير الداخلية حينذاك، والذي تربطه علاقات وثيقة بالرئيس سليمان، قال، "لقد ارتفعت الحوادث الجرمية مؤخراً بمعدل 50%... الوضع في سورية... قلب الأمور رأساً على عقب هنا. كل يوم هناك حادث ما - سواء كانت سرقات أو جرائم أخرى - يقوم بها سوريون دخلوا لبنان مؤخراً". وعلى نحو مماثل، قال رئيس الوزراء في ذلك الحين، نجيب ميقاتي، "نقول إننا ندعم اللاجئين. لكننا لن نسمح لوجودهم بالتأثير على الوضع الأمني في لبنان. الأمن قضية جوهرية". انظر "مروان شربل: لست عنصرياً"، الأخبار، 27 نيسان/أبريل 2012؛ http://ara.reuters.com/article/topNews/idARACAE9B2T3N_20130313؛ أحد النشطاء اللبنانيين المناهضين للأسد عبر عن مخاوفه قائلاً: "يربط المسؤولون أحياناً بين القضايا الأمنية والسوريين بشكل عام. لقد أصبح اللاجئين هم المشتبه بهم المعتادون كلما حدث شيء في هذا البلد، من السرقات الصغيرة إلى التهديدات الأكبر. قد يحدث حادث خطير لا علاقة له على الإطلاق بالسوريين، لكنه قد يتصاعد ويلحق بهم الأذى". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، شباط/فبراير 2013.

⁶⁴ رغم ذلك، وطبقاً لنشطاء سوريين ولبنانيين مناهضين للنظام، فإن عدداً من اللاجئين والمنظمات غير الحكومية رفضت مساعدة حزب الله. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الثاني/يناير 2013.

⁶⁵ "Hizbollah rejects politicising case of Syrian refugees", *The Daily Star*, 3 January 2013.

⁶⁶ "UNHCR registration trend for Syrians", op. cit.

⁶⁷ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع عاملين في مجال تقديم المساعدة، ومع مسؤولين في حزب الله، بيروت، صيدا، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير 2013.

لقد عارضنا فكرة السماح لبعض المنظمات الدولية بالعمل في منطقة البقاع بحجة مساعدة اللاجئين السوريين. نحن نحترم حقوق اللاجئين ونكرر أن على الحكومة أن تعتني بهم. لكننا لا نستطيع أن نسمح باستغلال الجانب الإنساني كمدخل لتعزيز الدعم للمتمردين.⁶⁸

في المناطق ذات الأغلبية الشيعية التي تشهد حالياً وصول اللاجئين، فإن العديد من السكان المحليين يعبرون عن مخاوفهم من أن الأعداد قد تزداد؛ ويبدو أن ثمة توترات متصاعدة.⁶⁹ أحد السكان الشيعية قال، "نعتقد أن حزب الله هو التالي على قائمة الأهداف بالنسبة للاجئين السوريين، بعد أن يتخلصوا من النظام".⁷⁰ رغم أن الحزب يرفض هذه المخاوف علناً - وهو محق - فإن العديد من أعضائه وحتى كوادره يشعرون بهذا القلق المبالغ به.⁷¹ أحد القادة الشيعية المحليين في بيروت، الذي تربطه علاقات وثيقة بالحزب، مضى أبعد من ذلك قائلاً:

نخشى أن لاجئين يتوجهون إلى مناطق قريبة من تواجد حزب الله. تحركاتهم ليست بريئة: إنهم يحاولون الإحاطة بالحزب ومراقبة تحركاته. في المقابل، فإننا نراقبهم بحذر شديد. بينهم خلايا إرهابية نائمة، بعضها سوري - لبناني، وبعضها الآخر دولي، سواء في بيروت أو مناطق أخرى. في الطريق الجديدة [وهو حي في العاصمة ذو أغلبية سنية] وحده، هناك 2000 مقاتل سوري. يمكن أن يحاولوا زعزعة استقرار البلاد، ومهاجمتنا أو حتى زرع قنبلة في حي شيعي. السنة لم يعودوا ضعفاء كما كانوا في أيار/مايو 2008 وبعد أن وُخِّدوا قواهم مع السوريين.⁷²

إن صدور مثل هذه التأكيدات الافتراضية والتي لا أساس لها يعد مؤشراً على ذهنية سياسية ونفسية خطيرة يمكن أن تفاقم من التوترات السنية - الشيعية. لا يتحمل اللاجئون السوريون مسؤولية هذا، لكن المؤكد أنه يتم دفعهم إلى العودة إلى نفس النزاع الذي كانوا يأملون بالهروب منه. أحد النشطاء السوريين قال:

نحن [اللاجئون السوريون] حريصون على عدم إبراز وجودنا هنا. لا نريد التدخل في الشؤون الداخلية اللبنانية، ولا نريد أن نصبح طرفاً في النزاع. لكن حزب الله نفسه يتدخل في سورية ويرسل المقاتلين لقتل شعبنا. نتيجة لذلك، يزداد الأمر صعوبة في إقناع بعض لاجئنا بالإحجام عن الدخول في السياسات اللبنانية.⁷³

هذه النقطة الأخيرة بالغة الأهمية. كما ستتم مناقشته أدناه، يذكر أن الأشهر الأخيرة شهدت زيادة كبيرة في انخراط الحزب الشيعي بشكل مباشر في النزاع في سورية. وهذا بدوره أبرز التوترات القائمة ليس فقط مع اللبنانيين السنة بل أيضاً مع مقاتلي المعارضة واللاجئين السوريين. في شباط/فبراير 2013 ومرة أخرى في آذار/مارس، هددت جماعات المعارضة المسلحة بصرب أهداف حزب الله في لبنان إذا استمر في القتال عبر الحدود.⁷⁴ في نيسان/أبريل، قصف المتمردون قرى لبنانية شيعية، ما أدى إلى مقتل اثنين من سكانها وجرح ثلاثة آخرين.⁷⁵

⁶⁸ انظر تقرير مجموعة الأزمات، "توازن هش"، مرجع سابق، ص. 16.

⁶⁹ لم يعد بوسع اللاجئين اللجوء إلى شمال لبنان والبقاع بسبب إشباع هذه المناطق، ما أجبرهم على التوجه إلى مناطق أخرى، بما في ذلك مناطق ذات حساسية كبيرة مثل أحياء الجية والناعمة قرب بيروت والتي تربط العاصمة بالجنوب الذي يسيطر عليه حزب الله، إضافة إلى مدن صيدا وصور المختلطة مذهبياً. ملاحظات ومقابلات لمجموعة الأزمات مع لاجئين سوريين، وممثلين لمنظمات غير حكومية، بيروت، صيدا، شباط/فبراير 2013. انظر IRIN، 13 "Syrian refugees head to Lebanon's Shia south"، January 2013.

⁷⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مواطن شيعي، الخندق العميق، كانون الثاني/يناير 2013.

⁷¹ مسؤول في حزب الله قال، "لا يمثل اللاجئون مخاطرة طالما لا ينخرطون في أنشطة عسكرية. ننظر إليهم بشكل أساسي من منظور إنساني". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، شباط/فبراير 2013. دعا نصر الله الشيعية لاستقبال اللاجئين السوريين في بيوتهم. المنار، 3 كانون الثاني/يناير 2013.

⁷² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، الخندق العميق، شباط/فبراير 2013. في أيار/مايو 2008، استولى حزب الله بشكل مؤقت على مناطق من العاصمة دون مقاومة تذكر. انظر إحاطة مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط رقم 23 "لبنان: أسلحة حزب الله تتوجه إلى الداخل"، 15 أيار/مايو 2008.

⁷³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط سوري، بيروت، شباط/فبراير 2013.

⁷⁴ انظر "Syrian Rebels threaten to hit Hezbollah targets in Lebanon"، *The Washington Post*, 19 February 2013.; "Syria conflict: Suspicions of deeper Hezbollah role grow"، BBC, 1 March 2013. A leader of the Free Syrian Army (a collection of opposition armed groups) warned: "al-Qusayr will be the graveyard of Hizbollah if they ever think of invading it". Ibid.

⁷⁵ "Lebanon/Syria: End indiscriminate cross-border attacks"، Human Rights Watch, 22 April 2013

ج. المخاوف المسيحية

بين الطوائف اللبنانية، ينزع المسيحيون للتعبير عن أكثر المخاوف حدة في ما يتعلق بتنامي الوجود السوري في لبنان. بالنسبة لأولئك الذين يشكلون جزءاً من تحالف 14 آذار،⁷⁶ المعارض للنظام السوري، فإن ما يهدئ من مخاوفهم إلى حد ما هو التحالف السياسي الذي عقده مع تيار المستقبل ذو الأغلبية السنية بقيادة رئيس الوزراء الأسبق سعد الحريري. ونتيجة لذلك، فقد تبنى قادتهم موقفاً يتمثل في عدم لفت الأنظار إليهم حول هذه القضية.

أما قواعدهم الشعبية فإنها لا ترى المسألة من نفس المنظار بالضرورة. حتى الآن، وبينما لا يخفون مخاوفهم حيال تصاعد النزعة الإسلامية وتزايد أعداد اللاجئين السوريين، فإن كثيرين لا يزالون يعتبرون النظام السوري، والقوة العسكرية لحزب الله وإيران تهديداً أكبر للبنان بشكل عام وللمسيحيين بوجه خاص.⁷⁷ إلا أن تلك المشاعر ليست ثابتة؛ فعندما يتم استهداف المسيحيين من قبل جماعات المعارضة السورية، فإن المخاوف حيال النزعة الإسلامية السنية تبلغ أوجها. أحد النشطاء المسيحيين شرح قائلاً:

إن اختطاف مطرانين سوريين [من قبل مجموعة مسلحة في حلب في نيسان/أبريل 2013]، واختطاف رجلي دين مسيحيين قبل ذلك [في شباط/فبراير 2013]، والهجمات ضد الكنائس [من قبل جماعات المعارضة المسلحة في تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر 2012 في شمال سورية]، وهروب المسيحيين من مناطق وجودهم - كل ذلك يؤثر في الحالة الذهنية للمسيحيين المؤيدين لتحالف 14 آذار. إنهم لا يؤيدون بالضرورة النظام السوري لكنهم ينظرون بعدائية أكبر إلى المعارضة. ونتيجة لذلك، بات من الصعب على سمير جعجع [زعيم القوات اللبنانية] إقناع قواعده بدعم الانتفاضة السورية.⁷⁸

الحليف المسيحي لحزب الله، التيار الوطني الحر، أقل تذبذباً وأظهر قدراً أقل من ضبط النفس. لقد عبر التيار الذي يقوده الجنرال ميشيل عون بصراحة ووضوح عن عدائه للاجئين، واستعمل أحياناً خطاباً تحريضياً.⁷⁹ وزير الطاقة جبران باسيل، صهر الجنرال عون، ذهب إلى حد حث الحكومة على "إجراء نقاش جدي حول طردهم".⁸⁰ أعضاء التيار في الحكومة كانوا الوحيدين الذين صوتوا ضد خطة الحكومة في كانون الأول/ديسمبر 2012 لمعالجة أزمة اللاجئين.⁸¹

هناك عدة أسباب لهذا الموقف، الأكثر أهمية من بينها هو الخوف العميق وواسع الانتشار بين المسيحيين اللبنانيين، من اختلال التوازن الديمغرافي بينهم وبين المسلمين الذي تحول على مدى عقود لصالح المسلمين. لهذه المخاوف جذور تاريخية، فهي تشكل انعكاساً لتجربة الطائفة مع اللاجئين الفلسطينيين، الذين تحولت إقامتهم المؤقتة وقصيرة الأمد نظرياً، إلى وجود عسكري هائل، وسني بشكل أساسي ودائم.⁸² يسارع كثيرون إلى مقارنة اللاجئين السوريين بمن سبقوهم من الفلسطينيين. ونتيجة لذلك، فإنهم ينظرون إلى تدفق السوريين بوصفه تهديداً ديموغرافياً للوضع الراهن الهش. مسؤول في التيار الوطني الحر قال:

في البداية، كان الفلسطينيون قلة؛ وكان يفترض أن يكون وجودهم مؤقتاً. بعد 65 عاماً، لا يزالون هنا. وقد تحولوا من مجموعة مسالمة هاربة من العنف إلى مجموعة مقاتلة وعدائية، ونتيجة لذلك عشنا 15 عاماً من

⁷⁶ يستمد تحالف 14 آذار اسمه من المظاهرة العارمة المناهضة لسورية التي نظمت في ذلك اليوم عام 2005. في ذلك الحين، كان التحالف يضم تيار المستقبل ذو الأغلبية السنية، والقوات اللبنانية وحزب الكتائب، وهما حزبان لبنانيان يقودهما، على التوالي، سمير جعجع والرئيس الأسبق أمين الجميل، والزعيم اللبناني وليد جنبلاط. انسحب جنبلاط من التحالف عام 2009.

⁷⁷ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين وأنصار للأحزاب المسيحية، بيروت، جونيه، الكورة، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير 2013. العديد من أنصار القوات اللبنانية والكتائب انتقدوا ما وصفوه بالتصريحات "المعيبة" أو "العنصرية" لقادة التيار الوطني الحر بزعمه ميشيل عون حيال اللاجئين السوريين. آخرون، وفي حين عبروا عن اختلافهم مع اللغة اللاذعة التي يستعملها خصومهم المسيحيون، أقرّوا بأن وجود مئات الآلاف السوريين، معظمهم من السنة، يعد مصدر قلق حقيقي. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، جونيه، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير 2013. طبقاً لممثل القوات اللبنانية، فإن مسؤولي الحزب يعقدون اجتماعات ونقاشات منتظمة لتتقيد قواعدهم حول القضايا المتعلقة بالنزعة الإسلامية السنية ووجود اللاجئين وتهدة مخاوفهم. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، ضبيّة، شباط/فبراير 2013.

⁷⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط مسيحي مشارك في الحوار بين الأديان، بيروت، أيار/مايو 2013.

⁷⁹ للمزيد حول الطائفة المسيحية وسياساتها، انظر تقرير مجموعة الأزمات، "المعادلة اللبنانية الجديدة"، مرجع سابق.

⁸⁰ "Bassil draw racism charges over call to expel refugees", *The Daily Star*, 24 December 2012.

⁸¹ النهار، 4 كانون الثاني/يناير 2013.

⁸² مقطع فيديو تم تداوله على الإنترنت بعنوان "قيل فوات الأوان" يؤكد على أوجه الشبه بين اللاجئين السوريين والفلسطينيين وي طرح السؤال، "هل سيعيد التاريخ نفسه؟". انظر

الحرب الأهلية المدمرة.⁸³ كيف يمكن أن نضمن ألا يكرر التاريخ نفسه؟ ما نراه من السوريين ليس مشجعاً على الإطلاق.⁸⁴

ما يفاقم من هذه المخاوف المتعلقة بالتوطين الدائم للاجئين هو التداخل الجديد بين المجتمعين الجارين وحقيقة أن عدداً كبيراً من السوريين، تاريخياً، إما استقروا في لبنان أو كانوا يعملون هناك كعمال موسمييين.⁸⁵ وهكذا فإن العديد من المسيحيين يتبنون الرأي القائل بأن وجودهم لن يكون مؤقتاً كما يصير للاجئين.⁸⁶ تساءل أحدهم:

ما الذي يجعلك متأكداً أن السوريين سيعودون إلى وطنهم؟ إلى متى سيستمر النزاع؟ وكم سنة ستستغرق إعادة بناء البلدات والقرى السورية وتعافي الاقتصاد؟ بحلول ذلك الوقت، فإن الكثيرين سيكونون قد استقروا هنا مع أسرهم. هل سيختارون المغادرة؟ أشك في ذلك.⁸⁷

سياسياً، فإن هذا التندق الهائل للسوريين يغذي اعتقاداً واسع النطاق بأن الطائفة السنية في لبنان - ولا سيما الإسلاميين في أوساطها - يتم تمكينهم، وأنهم يركبون الموجة الإقليمية العارمة للصعود الإسلامي بالنسبة لأنصار عون على وجه الخصوص، فإن هذا الصعود للحركات الإسلامية السنية لا يقل عن كونه تهديداً وجودياً.⁸⁸

ثمة ما يبرر مخاوف التيار الوطني الحر. على عكس نظرائه المسيحيين في تحالف 14 آذار، فإن التيار اكتسب عداوة اللبنانيين السنة بعمق بسبب تحالفه الوثيق مع حزب الله، وتصريحاته المتكررة ضد السنة⁸⁹ ومؤخراً بسبب دعمه العلني للنظام السوري.⁹⁰ من خلال تغذية ومقاومة مخاوف المسيحيين وعدم شعورهم بالأمن، ساعدت قيادة التيار الوطني الحر على تغذية النزعة الراديكالية في أوساط قواعدها، وهذا بدوره زاد من انعدام الثقة والعداوة بين السوريين. على حد تعبير أحد اللاجئين، "أعتقد أن سياسة عون قصيرة النظر. إنه يحولنا إلى أعداء رغم أنه في الأصل ليس لدينا مشكلة معه".⁹¹ صحفي لبناني حذر من نبوءة التيار الوطني الحر الذي يسعى هو نفسه لتحقيقها:

من خلال الاستمرار في اتهام السوريين في لبنان، والتهمج عليهم وتصنيفهم كخطر على بلدنا، فإننا [اللبنانيين] نحشرهم في زاوية. إننا نشعرهم بأنهم مستهدفون ولا حيلة لهم. وبفعلنا ذلك، فإننا نجعلهم أكثر عدوانية وعدائية حيال لبنان.⁹²

⁸³ في مطلع السبعينيات، دعت منظمة التحرير الفلسطينية إلى شن الكفاح المسلح ضد إسرائيل من الأراضي اللبنانية. وأطلقت عدة عمليات عسكرية ضد إسرائيل من جنوب لبنان، ما أدى إلى اشتباكات مع الجيش اللبناني وكذلك إلى ردود انتقامية إسرائيلية. بحلول أواسط العقد، انقسم لبنان بين الفلسطينيين وحلفاءهم وأغليبتهم من السنة من جهة، والقوى المعادية للفلسطينيين ذات الأغلبية المسيحية من جهة أخرى. وانخرطت الميليشيات التابعة لمختلف الأحزاب في صراع عنيف استمر سنوات. انظر تقرير مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط رقم 84، "أرض خصبة لزعة الاستقرار: مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان"، 19 شباط/فبراير 2009.

⁸⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في التيار الوطني الحر، بيروت، شباط/فبراير 2013. جبران باسيل، صهر عون، قال، "عندما نقول بأننا لا نريد اللاجئين السوريين والفلسطينيين، فلأنهم يأخذون مكاننا... ليس لدينا ما يكفي من الفلسطينيين في لبنان؟ هل يتوجب علينا أن نجلب مخيمات اللاجئين الآخرين إلى لبنان أيضاً؟". عون نفسه قال: "تراكم اللاجئين على الحدود يؤكد أنهم ليسوا جميعاً لاجئين، وهذا يشكل تهديداً، خصوصاً إذا كانوا مقاتلين يشاركون في الحرب في سورية. الجميع يعرف بأن قضية اللجوء تبدأ بأفراد يطلبون المساعدة وتنتهي بتمردهم عليك". "عون: اللاجئين السوريون تهديد كبير، تحت الرئيس أن يسأل الجيش حول قدراته الدفاعية"، نهار نت، 20 تشرين الثاني/نوفمبر 2012.

⁸⁵ يشير مسؤولو التيار الوطني الحر إلى مرسوم التجنيس لعام 1994 الذي سمح لعدد من الفلسطينيين والسوريين السنة بأن يصبحوا مواطنين لبنانيين كمبرر لمخاوفهم. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، 2008-2012.

⁸⁶ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع لاجئين سوريين، طرابلس، عكار، عرسال، طرابلس، صيدا، كانون الثاني/يناير 2012. كانون الثاني/يناير 2013.

⁸⁷ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، شباط/فبراير 2013.

⁸⁸ انظر تقرير مجموعة الأزمات، "توازن هش"، مرجع سابق، ص. 3-5، 11-12.

⁸⁹ صحيفة الجمهورية اللبنانية اليومية نشرت برقية كانت قد نشرتها ويكيليكس تذكر أن وزير العدل السابق شرح أن "عون أخبره أن السنة في لبنان 'حيوانات' و 'إرهابيين' وأن 'التحالف الماروني - الشيعي يمثل أفضل طريقة لمواجهة التهديد السني المحلي والخارجي". رغم أن عون أنكر هذه الاتهامات، فإنها أثارت موجة من ردود الفعل الغاضبة بين السنة. الجمهورية، 20 أيار/مايو 2011؛ "إيران وعون: تفكير متشابه طبقاً لشارل رزق"، برقية من السفارة الأمريكية في بيروت، 9 آب/أغسطس 2007، كما وردت في ويكيليكس؛ عون ينكر إهانة المسلمين السنة"، *بالبنان*، 28 أيار/مايو 2011؛ "دار الفتوى تقيم دعوى قضائية ضد عون"، *الآن*، 26 أيار/مايو 2011. ابن شقيق عون وعضو البرلمان عن التيار الوطني الحر آلان عون، حذر من الإسلامية السنة وشبه مدينة طرابلس السنة بقندهار، المدينة الأفغانية التي تعد مقعلاً للإسلاميين. *LebanonFiles*, 11 December 2012.

⁹⁰ تقرير مجموعة الأزمات، "توازن هش"، مرجع سابق، ص. 11-12.

⁹¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، شباط/فبراير 2013.

⁹² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع صحفي في صحيفة *النهار*، بيروت، شباط/فبراير 2013.

د. الجدال الدائر حول مخيمات اللاجئين

لقد شكلت مسألة ما إذا كان ينبغي إقامة مخيمات لاجئين داخل لبنان نقطة استقطاب للنزاعات المحلية. حتى بداية بنشرين الثاني/نوفمبر 2011 - في وقت كان لاجئاً فقط قد سجلوا لدى مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين⁹³ - حدث تيار المستقبل الحكومة على إقامة المخيمات.⁹⁴ زعماء سنة آخرون وشخصيات إسلامية كررت هذا الموقف. رغم أنهم برروا موقفهم على أساس إنساني، فإن مما لا شك فيه أنه كان لديهم دوافع أخرى.⁹⁵ وبالفعل، فإن وجود المخيمات كان يمكن أن يحقق هدفاً سياسياً كبيراً بالحق العار بدمشق، وتفنيد مزاعمها بأن الوضع طبيعي فيها وإبراز آثار قمع النظام على آلاف الأشخاص الذين أجبروا على العيش في خيام، وفي ظروف سيئة للغاية. صحفي تربطه علاقات وثيقة بتيار المستقبل أقر بأن "الدعوات الأولى التي أطلقت لإقامة مخيمات للاجئين كانت تهدف إلى تحميل الأسد مسؤولية تهجير شعبه".⁹⁶

كان هناك فوائد سياسية أخرى. الداعون إلى إقامتها كانوا يعرفون أن الحكومة سترفض الفكرة، وهو ما سيوفر فرصة لاتهم ميقاتي وحزب الله في الوقت نفسه بإهمال الشعب السوري وخدمة النظام السوري، وبذلك يثيرون سخط السنة.

بالنسبة لحزب الله وحلفاءه، فإن المقترح كان مرفوضاً أصلاً؛ فقد اعتبروه طريقة فجة لإيجاد ملاذات آمنة للمقاتلين المعادين للنظام واستعمال الأنشطة الإنسانية كواجهة للتغطية على الأنشطة القتالية. في حزيران/يونيو 2012، قال مسؤول رفيع في الحزب:

لن ننسأهل حيال أن يصبح لبنان ممراً أو قاعدة للتدخل الخارجي في سورية. ولهذا السبب رفضنا إقامة مخيمات اللاجئين في لبنان رغم الدعوات المتكررة من قبل 14 آذار لإقامتها. ستصبح هذه المخيمات مناطق تستطيع الجماعات المسلحة إقامة قاعدة لها فيها وتلجأ إليها.⁹⁷

تمسك حزب الله بذلك الموقف، حتى مع ارتفاع عدد اللاجئين. بعد أشهر، ومع وصول القضية إلى حجم الأزمة، قال أحد المسؤولين في الحزب، "سنستمر في رفض إقامة مخيمات اللاجئين لأنها ستتحول إلى ملاذات عسكرية آمنة".⁹⁸ بالفعل، وفي ظل ضعف المؤسسات الأمنية في البلاد، فإن إقامة المخيمات في المناطق السنية الداعمة للانتفاضة كانت ستسهل تهريب الأسلحة والمقاتلين. مسؤول أممي تبنى وجهة النظر هذه وأقر بأن "عسكرة مخيمات اللاجئين تمثل مخاطرة جدية".⁹⁹

رغم ذلك، فإن المخيمات توفر عدة فوائد هامة. يشير العاملون في مجال تقديم المساعدات والمسؤولون الضالعون في تقديم الإغاثة للاجئين إلى أنها كانت ستسهل تقديم الدعم الإنساني، وتقلص التكاليف وبالتالي تعزز الاستدامة المالية وتساعد على مراقبة وإدارة تحركات اللاجئين. أحد مستشاري ميقاتي اتفق مع هذا الرأي قائلاً: "في المحصلة قد لا يكون لدينا خيار. لقد وصل لبنان إلى أقصى قدرة له على الاستيعاب. إضافة إلى ذلك، فإن المخيمات ستعزز من السيطرة الحكومية ورقابتها على أنشطة اللاجئين.¹⁰⁰ كما أن المخاوف الأمنية كان يمكن تهدئتها إلى حد كبير إذا أحسن تصميم المخيمات، وكانت في مواقع مختارة بعناية وتدار بشكل جيد. على سبيل المثال، كان يمكن أن تقام على بعد معقول من الحدود وأن تبقى صغيرة نسبياً، مما يسهل تنظيمها دون اللجوء بالضرورة إلى تدابير سلامة أمنية متشددة.

في المحصلة، فإن المخيمات لا تشكل علاجاً شافياً لكن، ووفقاً للمعدلات الراهنة، قد تصبح ضرورة. على حد تعبير مسؤول في مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين:

من وجهة نظر لوجستية، فإن إدارة المخيمات أسهل من أن يكون لاجئون منتشرين في سائر أنحاء البلاد. إلا أن هذه المخيمات تشكل مسألة حساسة أيضاً وينبغي أن تظل الحل الذي يتم اللجوء إليه عندما تنعدم الحلول الأخرى. إنها تولد درجة أكبر من الاعتماد على الأمم المتحدة والمنظمات الإنسانية. كما يمكن أن تنحو نحو العسكرة، وفي تلك الحالة يصبح هناك مخاطرة بنشوب العنف ضد اللاجئين. إلا أن الحقيقة تبقى

⁹³ طبقاً للمفوضية، فإن العديد منهم كانوا يعودون إلى سورية في ذلك الحين. انظر www.unhcr.org/4ec6605f9.html.

⁹⁴ انظر 8، "The Daily Star"، "Politicians call for establishment of Syrian refugees camps in Lebanon"، November 2011.

⁹⁵ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين من تيار المستقبل وتحالف 14 آذار، بيروت، طرابلس، تشرين الثاني/نوفمبر 2011 - كانون الثاني/يناير 2012.

⁹⁶ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، شباط/فبراير 2013.

⁹⁷ انظر تقرير مجموعة الأزمات، "توازن هش"، مرجع سابق، ص. 16.

⁹⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في حزب الله، بيروت، شباط/فبراير 2013.

⁹⁹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول أممي، بيروت، شباط/فبراير 2013.

¹⁰⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد مستشاري ميقاتي، بيروت، شباط/فبراير 2013.

أن لبنان وصل إلى نقطة الإشباع، لا سيما من حيث أماكن الإيواء. العديد من اللاجئين يعيشون اليوم في ظروف سيئة للغاية. إذا وصلت موجات أخرى من اللاجئين إلى لبنان، فقد لا يكون هناك بديل آخر.¹⁰¹

لقد بدأت المخيمات المؤقتة بالنشوء أصلاً في مناطق من عكار والبقاع.¹⁰² نتيجة لذلك، قد يصبح لبنان مجبراً على تحمل تداعيات مخيمات اللاجئين دون الحصول على فوائدها المحتملة - وهو ما يترك السلطات مع أمر واقع يصعب عكسه وتصبح إدارته بدلاً من ذلك، على جميع الأطراف اللبنانية مناقشة أفضل الطرق لمعالجة هذه القضية من منظور عملي، وليس من منظور سياسي، أخذين في الاعتبار أنه لا يمكن تجاهل المخاوف الأمنية، لكنها لا ينبغي أن تستعمل لرفض الفكرة بشكل قاطع.

¹⁰¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، بيروت، شباط/فبراير 2013.
¹⁰² ملاحظات لمجموعة الأزمات، عكار ووادي البقاع، كانون الثاني/يناير 2013. في بعض الحالات، وزعت المنظمات الإسلامية الخيام على الأسر السورية، ونسقت مساعداتها مع السلطات المحلية؛ وفي حالات أخرى، انتقل اللاجئون إلى خيام قرب عشائر البدو. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع لاجئين سوريين، على عكار ووادي البقاع، كانون الثاني/يناير 2013. انظر أيضاً "Bekaa town opens its own refugee camp", *The Daily Star*, 21 December 2012.

IV. إعادة تعريف المشهد اللبناني - السوري

لقد تمتع البلدان الجاران منذ وقت طويل بعلاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية حميمة. التزاوج بين مواطنيهما أمر شائع، ونتيجة لذلك فإن العائلات العشائر تنتشر على جانبي الحدود.¹⁰³ تاريخياً، كان هناك تداخل وثيق بين اقتصادي البلدين، حيث أنهما يتكاملان ويعتمدان على بعضهما بعضاً. لقد اجتذب لبنان رؤوس الأموال السورية منذ أربعينيات القرن العشرين.¹⁰⁴ وتدفع مئات آلاف العمال السوريين إلى لبنان بعد الحرب الأهلية، حيث جذبتهم الأعمال المتعلقة بعملية إعادة الإعمار؛¹⁰⁵ أدى نظام السوق الحر في بيروت، مصحوباً بهيمنة دمشق على جارتها، إلى ظهور شبكات الفساد بين نخب كلا البلدين وأصبحت هذه الشبكات متداخلة؛ وخلال سنوات الوجود السوري في لبنان (حيث نشرت أكثر من 30,000 جندي)، أنشأ النظام السوري شبكات سياسية وأمنية ترسخت في البلاد.¹⁰⁶

استمرت هيمنة سورية عدة عقود وواجهت مقاومة جديّة في أحيان قليلة فحسب. قمع جيشها بوحشية الإسلاميين اللبنانيين المناهضين لسورية في الثمانينات - بعد قمعه العنيف لإسلاميي سورية - واستمر في فعل ذلك طوال التسعينيات ومطلع الألفية.¹⁰⁷ لم يكن مصير المعارضة المسيحية أفضل بكثير؛ حيث أخرج معظم قادتها من الساحة السياسية، وقامت الأجهزة الأمنية في بيروت ودمشق بتحييد قواعدها.¹⁰⁸

أطلق اغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري عام 2005 - والذي حمل معظم اللبنانيين السنة وأيضاً السعودية والغرب مسؤوليته لسورية - العنان لحركة قوية في معارضة نظام الأسد.¹⁰⁹ رغم ذلك، فإن الحركة أخفقت في تطوير علاقات هامة مع نظيرتها في سورية، حيث تم قمع المعارضة فوراً.¹¹⁰ الانتفاضة السورية غيرت من هذا الواقع من عدة أوجه. لم تؤد فقط إلى ظهور جملة من التحالفات المناهضة للنظام وكانت عابرة للحدود، بل إنها غيرت طبيعة الشبكات الموالية للنظام في كلا البلدين.

أ. الشبكات المناهضة للنظام

1. البعد شبه العسكري

مع وجود حدود غير مرسمة الخارجة عن السيطرة وقابلة للاختراق فإن التهريب بين لبنان وسورية كان موجوداً دائماً. من الناحية التجارية، كان هناك تهريب للسلع والوقود، إلا أن النظام السوري كان ضالماً أيضاً في أنشطة عسكرية وشبه عسكرية. كان أعداؤه اللبنانيون كما الغرب يهتمونه على نحو متكرر بتقديم الأسلحة لمختلف حلفائه اللبنانيين والفلسطينيين، لا سيما حزب الله، والجيبة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة وفتح الانتفاضة.¹¹¹ في أعقاب احتلال الولايات المتحدة للعراق عام 2003، حملت واشنطن أيضاً نظام الأسد

¹⁰³ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع لبنانيين وسوريين، طرابلس، عكار، البقاع، بيروت، 2011-2012. انظر أيضاً تقرير مجموعة الأزمات، "توازن هش"، مرجع سابق، ص. 1-2.

¹⁰⁴ منذ نهاية الأربعينيات، شكلت المصارف اللبنانية ملاذاً آمناً للودائع السورية الباحثة عن الاستقرار وفرص الاستثمار الأفضل في أعقاب الاضطرابات والانقلابات العسكرية في دمشق. في أعقاب انقلاب حزب البعث عام 1963 وقرار التأميم، الذي نص على مصادرة الممتلكات والثروات الخاصة من قبل الدولة، عبرت الكثير من الشركات ورجال الأعمال والممولين الحدود، وأحضروا رؤوس أموالهم معهم. "Syrian capital in Lebanese banks: between myth and reality", Information International, 9 April 2009.

¹⁰⁵ لا يُعرف العدد الدقيق للعمال السوريين في لبنان خلال سنوات ما بعد الحرب. طبقاً لبعض المراقبين، فإنها تجاوزت المليون أحياناً. انظر 7، 2011، p. Robert Schuman Centre for Advanced Studies.

¹⁰⁶ طور النظام تحالفات قوية مع عدد من اللاعبين اللبنانيين والفلسطينيين. علاوة على ذلك، فإن القرارات المتعلقة بتشكيل الحكومة وتسمية المرشحين للمناصب الأمنية والعسكرية الرئيسية كانت تتطلب موافقة سورية.

¹⁰⁷ بين عامي 1982 و 1986، كانت طرابلس مسرحاً لمواجهات دموية بين الجيش اللبناني والإسلاميين اللبنانيين الذين كانوا قد منحوا الملاذ لنظرانهم السوريين بعد قمع دمشق للإخوان المسلمين عام 1982. في التسعينيات، سُجن مئات الإسلاميين وعذبوا من قبل الأجهزة الأمنية السورية واللبنانية. انظر تقارير مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط. *N°29, Nouvelle crise, vieux démons au Liban: les leçons oubliées de Bab Tebbaneh/Jabal Mohsen*, 14 octobre 2010, pp. 6-7.

¹⁰⁸ ميشيل عون، رئيس التيار الوطني الحر، وأمين الجميل، رئيس حزب الكتائب، اجبرا على الذهاب إلى المنفى؛ وسمير جعجع، الذي كان يقود القوات اللبنانية، سجن لأكثر من عقد من الزمن. للمزيد، انظر تقرير مجموعة الأزمات، "المعادلة اللبنانية الجديدة، مرجع سابق، 15 تموز/يوليو 2008".

¹⁰⁹ قبل ذلك كانت عدة شخصيات مسيحية إضافة إلى وليد جنبلاط قد عبرت عن معارضتها لهيمنة السورية لكن دون إحداث أثر يذكر. ¹¹⁰ في عام 2006، وقّعت مجموعة من النشطاء والمثقفين السوريين إعلان بيروت - دمشق، الذي دعا إلى تحسين العلاقات الثنائية وإلى احترام سورية لسيادة لبنان؛ وتم اعتقال الموقعين على الإعلان وسجنهم من قبل النظام. "Dissident writer Michel Kilo freed in Syria", BBC, 20 May 2009.

¹¹¹ يحتفظ الفصائل الفلسطينية بقواعد عسكرية خارج المخيمات. انظر تقرير مجموعة الأزمات، "أرض خصبة لزعة الاستقرار"، مرجع سابق، ص. 6.

مسؤولية تسهيل مرور الإسلاميين اللبنانيين والفلسطينيين للمشاركة في المعارك ضد الأمريكيين.¹¹² كما يزعم منتقدو النظام السوري أن سورية سمحت للجهاديين بعبور حدودها إلى شمال لبنان.¹¹³

الانتفاضة السورية قلبت هذا الواقع رأساً على عقب. اليوم، تسير التدفقات في الاتجاه المعاكس، حيث تنخرط القوى المعادية للنظام في لبنان في أنشطة شبيهة عسكرية خاصة بها. إنها لا تقدم فقط المأوى والعلاج الطبي للمتمردين السوريين، لا سيما في طرابلس، وعمار والمناطق السنية من وادي البقاع،¹¹⁴ بل من المعروف أيضاً أنهم يهربون الأسلحة إلى سورية؛¹¹⁵ ومؤخراً، يبدو أن الإسلاميين اللبنانيين انضموا إلى القتال عبر الحدود. وتأكّدت الشائعات التي كانت رائجة في ذلك الصدد في تشرين الثاني/نوفمبر 2012، عندما نُصب كمين لنحو 15 إلى 20 لبنانياً، معظمهم من شمال لبنان، من قبل الجنود السوريين وهم يحاولون العبور إلى سورية للانضمام إلى قوات المعارضة في تلكلخ، وهي بلدة سورية غرب حمص، تبعد بضعة كيلو مترات عن حدود لبنان الشمالية.¹¹⁶

طبقاً لعدة شبوخ من طرابلس، فإن أكثر من 200 مقاتل إسلامي من المدينة وحدها عبروا الحدود إلى سورية منذ أواخر عام 2012.¹¹⁷ أحد الشيوخ شرح قائلاً: "العديد من اللبنانيين الذين يقاتلون في سورية يفعلون ذلك لدعم أخوتهم السوريين. لكنهم يرون في ذلك فرصة أيضاً لتسوية الحسابات مع نظام قمع الإسلاميين لعقود".¹¹⁸ يذكر أن الجهاديين اللبنانيين قاموا أيضاً بإنشاء معسكرات تدريب لإعداد أتباعهم للقتال مع المعارضة السورية.¹¹⁹ مقاتل سلفي قال، "لقد باتت سورية المقصد الجديد المفضل للجهاديين".¹²⁰

يقر أفراد المعارضة السورية بتلقيهم مثل تلك المساعدة. في مطلع آذار/مارس، نشرت حركة أحرار الشام، وهي مجموعة سلفية سورية متشددة تنشط الفصائل المختلفة المرتبطة بها في سائر أنحاء البلاد، فيديو على يوتيوب شكرت فيه "الناس في طرابلس للدعم الذي يقدمونه لأخوتهم السوريين".¹²¹

يمكن للوضع أن يتصاعد. في نيسان/أبريل، ورداً على تصريح لحزب الله يقول فيه إنه يقاتل في سورية دفاعاً عن الشيعة اللبنانيين،¹²² حث السلفيون اللبنانيون على الجهاد هناك. أحمد الأسير، الشيخ السلفي البارز في صيدا والمعروف بدعمه للمعارضة قال، "هناك واجب ديني على كل مسلم... للدخول إلى سورية من أجل الدفاع عن شعبها، ومساجدها ورموزها الدينية، لا سيما في القصير وحمص".¹²³ سالم الرفاعي، وهو زعيم

¹¹² المرجع السابق، ص. 25؛ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين لبنانيين وفلسطينيين وإسلاميين، بيروت، طرابلس، المخيمات الفلسطينية، 2008-2009.

¹¹³ في ذلك الحين، اتهم خصوم سورية، لا سيما قادة تحالف 14 آذار، اتهموها بالسماح للمقاتلين من فتح الإسلام، وهي جماعة جهادية، بعبور الحدود إلى لبنان؛ وفي عام 2007، قاتلت المجموعة ضد الجيش اللبناني في مخيم نهر البارد للاجئين الفلسطينيين. شاكّر العبيسي، زعيم المجموعة، كان قد سجن في سورية وأطلق سراحه عام 2005. غداً إطلاق سراحه في وقت كانت دمشق تواجه معارضة شديدة في لبنان للشكوك في أن سورية كانت تسعى لزعزعة استقرار جارتها. تقرير مجموعة الأزمات، "أرض خصبة لزعزعة الاستقرار"، مرجع سابق، ص. 28.

¹¹⁴ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع نشطاء سوريين ولبنانيين، وشيوخ، وزعماء محليين، طرابلس، عكار، عرسال، كانون الأول/ديسمبر 2012-شباط/فبراير 2013.

¹¹⁵ انظر تقرير مجموعة الأزمات، "توازن هش"، مرجع سابق، ص. 1-2. في أيار/مايو 2012، قال تيري رود لارسن، المبعوث الخاص للأمم المتحدة لتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم 1559 (2004)، "هناك ما يبرر الاعتقاد أن ثمة تدفقاً للأسلحة بكلا الاتجاهين - من لبنان إلى سورية ومن سورية إلى لبنان". مقتبس في، "Arms flowing between Lebanon and Syria"، Al Jazeera، 9 May 2012.

¹¹⁶ يذكر أن صور المقاتلين القتلى أرسلت إلى أهاليهم. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مقاتلين إسلاميين، طرابلس، كانون الثاني/يناير 2013. "Twenty Lebanese killed in Syria Ambush"، *The Daily Star*، 30 November 2012.

¹¹⁷ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مشايخ ومقاتلين إسلاميين، طرابلس، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير 2013.

¹¹⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع شيخ سلفي، طرابلس، كانون الثاني/يناير 2013.

¹¹⁹ انظر "Exclusive: Veteran Lebanese fighter trains new generation of jihadis - for Syria"، *The Christian Science Monitor*، 30 May 2012. كما ورد أعلاه، فإن انخراط حزب الله في سورية يدفع الإسلاميين اللبنانيين على فعل الشيء نفسه. إسلامي لبناني قال، "مهما بلغ الدعم الذي تقدمه نحن [الإسلاميون] للثورة، فإنه لا شيء بالمقارنة مع مساعدة حزب الله للنظام. هل من العدل أن يرسل الحزب مقاتلين مدربين ومجهزين جيداً إلى سورية، في حين يتم التدقيق علينا في أصغر شيء فعلناه؟" مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، كانون الثاني/يناير 2013.

¹²⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، كانون الثاني/يناير 2013. للمزيد، انظر تقرير مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط رقم 131، "هل هو جهاد؟ المعارضة الأصولية في سورية، 12 تشرين الأول/أكتوبر 2012.

¹²¹ انظر #انظر www.youtube.com/watch?v=qPs59qKFuHM&feature=player_embedded. على نحو مماثل، فإن فيديو نشر على يوتيوب في كانون الثاني/يناير 2013 يصور على ما يبدو مقاتلين سوريين يعلنون عن تشكيل كتيبة أحمد الأسير - في إشارة إلى الشيخ السلفي الإشكالي من صيدا والمعروف بخطابه العنيف ضد حزب الله وكذلك بدعمه للثورة السورية. وقد دعا لمظاهرات لدعم المتمردين السوريين في وسط بيروت. انظر

www.youtube.com/watch?v=rZMNq761H8&feature=player_embedded.

¹²² انظر أدناه، الجزء 4. ب.

¹²³ "شيخ سني لبناني يدعو إلى الجهاد لمساعدة الثوار السوريين ضد حزب الله"، العربية، 23 نيسان/أبريل 2013.

سلفي في طرابلس، كرر نفس الدعوة: "لدينا شعبنا أيضاً وهم سنة لبنانيون في القصر وتلكخ. ستتوقف دعوتنا للجهاد حالما ينسحب حزب الله من سورية". وطلب الشيخان من الشباب السنة الالتحاق وتحضير أنفسهم للمعارك في سورية. استمرت هذه التبادلات مع رد من حسن نصر الله على الاتهامات بأن حزب الله يشارك في الحرب: "لا يمكن لأي طرف أن يدعي أنه غير منخرط في النزاع في سورية". وبالإشارة إلى أولئك الذين وصفهم بـ "التكفيريين"، أضاف: "الفتاوى، والخطب وإرسال المال والسلاح والمقاتلين لم يتوقف منذ سنتين".¹²⁴

إن تقييم مدى انخراط الإسلاميين اللبنانيين السنة في النزاع أمر صعب. لكن يبدو أنه محدود نسبياً وغير احترافي، كما يوضح الكمين الذي نصب في تلكخ وحتى الدعوات المسرحية للجهاد.¹²⁵ إلا أنه ما من شك أن نطاق الانخراط في اتساع مستمر، ما يعكس تحدياً لحزب الله وسلطات الدولة.

كما تشكل المشاركة اللبنانية في الحرب في سورية مخاطرة حقيقية من حيث أثرها المستقبلي على لبنان نفسه. وثمة سوابق يمكن التعلم منها؛ فاللبنانيين وغيرهم من العرب الذين قاتلوا في أفغانستان والعراق انتقلوا لاحقاً إلى ميادين معارك أخرى.¹²⁶ إن الحدود السورية - اللبنانية القابلة للاختراق، والأجهزة الأمنية اللبنانية الضعيفة، التعددية المذهبية للبلاد وتصاعد التوترات السنوية الشيعية تجعل ذلك احتمالاً مرجحاً - ومقلماً - وأن لبنان يمكن أن يتحول إلى الحلبة التالية للعائدين من الجهاد في سورية.

2. علاقات سياسية متجددة

نتيجة للانتفاضة، فإن العلاقات بين الجماعات المناهضة للنظام السوري على جانبي الحدود، سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية، يتم تشكيلها للمرة الأولى منذ عقود. وقد كان ذلك صحيحاً، على وجه الخصوص، على المستوى المحلي. يعقد النشطاء السوريون اجتماعات منتظمة مع شخصيات من 14 آذار والمعارضة اللبنانية¹²⁷ والقوى السياسية الإسلامية وأعدت القوى الإسلامية السياسية في البلدين ارتباطها بعد انقطاع طويل في العلاقات. جدير بالذكر أن الجماعة الإسلامية، الفرع اللبناني للإخوان المسلمين، أعادت إنشاء علاقات مع نظيرها السوري؛ وقد اجتمع قادة الفرعين عدة مرات في اسطنبول وأماكن أخرى.¹²⁸

بالنسبة للاجئين السوريين، فإن تمتعهم بعلاقات مع مسؤولي 14 آذار كان مفيداً، ومصدراً للدعم المادي وشكلاً من أشكال الحماية.¹²⁹ أحد النشطاء قال:

لعب حلفاؤنا اللبنانيون دوراً هاماً في تحقيق التوازن مع حلفاء النظام. تدخل عدة مسؤولين لصالحنا مع القضاة وضباط الأمن اللبنانيين، على سبيل المثال عند اعتقال النشطاء. إنهم يمثلون شكلاً من أشكال الردع لعملاء النظام السوري ومنعهم من التماهي.¹³⁰

¹²⁴ نصر الله: لن نتردد بمساعدة اللبنانيين في القصر ونحن فخورون بشهدائنا"، نهار نت، 30 نيسان/أبريل 2013.

¹²⁵ إسلامي لبناني قال، "لم يحضروا أنفسهم بشكل جيد. كان ينبغي أن يحصلوا على معرفة أفضل بالجغرافيا السورية ولا سيما في

المناطق التي يسيطر عليها النظام. إضافة إلى ذلك، يمكن أن يكونوا مخترقين من قبل عملاء الأسد. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع شيخ من طرابلس، طرابلس، كانون الثاني/يناير 2013. يبدو أن الدعوات العلنية للجهاد من قبل الشيخين السلفيين كانت مصممة لتهدئة غضب الإسلاميين السنة حيال التقارير التي تفيد بانخراط حزب الله في النزاع في سورية أكثر منها خطة ملموسة للعمل. بحث المطوعين على الالتحاق بالجهاد، خاطر الشيخان بكشف المجندين المحتملين أمام سلطات الدولة؛ إضافة إلى ذلك فإن الجماعات المسلحة في سورية رفضت تلك الدعوات، مما يكشف عن غياب التنسيق المسبق. "الشباب السنوي اللبناني يلتحق بالجهاد ضد حزب الله"، العربية، 24 نيسان/أبريل 2013؛ "الجيش السوري الحر يرفض دعوات السلفيين اللبنانيين إلى الجهاد"، نهار نت، 24 نيسان/أبريل 2013.

¹²⁶ فتح الإسلام، التي كان صراعها مع الجيش اللبناني مدمراً بالنسبة للبلاد، وللاجئين الفلسطينيين وللجماعة الإسلامية نفسها، تشكل مثلاً واضحاً. كما كتبت مجموعة الأزمات، فإن "فتح الإسلام جمعت الوجوه المختلفة للجهادية: أفغان عرب؛ متشددون لبنانيون متأثرون بالحركات المحلية؛ متطوعون شباب تم تجنيدهم على الإنترنت من سائر أنحاء العالم العربي؛ نشطاء من المخيمات الفلسطينية؛ وعائدون من العراق". تقرير مجموعة الأزمات، "السياسات اللبنانية"، مرجع سابق، ص. 26-27. بين أمثلة أخرى هناك بسام الكنج (أبو عائشة)، وهو لبناني قاتل في أفغانستان واصطدمت مجموعته مع الجيش اللبناني بين كانون الأول/ديسمبر 1999 وكانون الثاني/يناير 2000، ما أدى إلى مقتل أكثر من ثلاثين شخصاً. المرجع السابق.

¹²⁷ لقد شارك عدة نشطاء سوريين في فعاليات لبنانية رسمية، مثل احتفالات 14 شباط/فبراير بذكرى اغتيال رفيق الحريري وبجائزة وسام الحسن، القائد السابق لفرع المعلومات في قوى الأمن الداخلي.

¹²⁸ إضافة إلى تقديم الدعم للاجئين الفلسطينيين، فإن الحركة نظمت مظاهرات نيابة عن الانتفاضة السورية حضرها العديد من السوريين - بما في ذلك مسؤولين من الإخوان المسلمين. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في الجماعة الإسلامية، بيروت، طرابلس، كانون الأول/ديسمبر 2012 - كانون الثاني/يناير 2013.

¹²⁹ سهلت العلاقات مع المسؤولين المناهضين لسورية عمليات لجنة التنسيق للاجئين السوريين في لبنان. أحد أعضائها شرح قائلاً: "بفضل السياسيين اللبنانيين المعادين للنظام، تمكنا من إحضار الجرحى والأشخاص الذين يحتاجون الرعاية الطبية إلى المستشفيات في الشمال. كما أنهم قدموا بعض التمويل وساعدونا في الحصول على الأموال من المانحين الخليجيين". مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، شباط/فبراير 2013.

حتى الآن، لم تتم ترجمة هذه المجموعة من الاتصالات المتباينة إلى علاقات وثيقة على نحو خاص بين المعارضة السورية المنظمة وتحالف 14 آذار. صحيح أن التحالف اللبناني المناهض لسورية عبّر عن دعمه للمجلس الوطني السوري - مجموعة المعارضة السورية التي تشكلت عام 2011 - ومن ثم التحالف الوطني لقوى الثورة والمعارضة.¹³¹ بالمقابل، فإن المجلس الوطني السوري بعث برسالة بمناسبة ذكرى اغتيال رفيق الحريري¹³² ووجه "رسالة مفتوحة إلى الشعب اللبناني" عكست الكثير من مواقف 14 آذار فيما يتعلق بالعلاقات المستقبلية بين البلدين.¹³³ لكن عدا عن ذلك، فإن التفاعل بين المجموعتين ظل سطحياً نسبياً.¹³⁴

رغم أن حقيقة أن المعارضة السورية طورت علاقات وثيقة مع أحد أطراف الطيف السياسي اللبناني أمر مفهوم ولا يمكن تجنبه، إلا أن ذلك لا يخلو من مخاطر بعيدة المدى. إن العديد من النشطاء السوريين قد دخلوا أصلاً عملية الاستقطاب المذهبي في لبنان، وفي الكثير من الحالات تبنا خطاب ومنظور حلفائهم اللبنانيين - على سبيل المثال بالتقليل من شأن قوة حزب الله، ومقاومته وشعبيته بين الشيعة بعد الانهيار المحتمل للنظام السوري أو بإخفاقهم في توسيع علاقاتهم مع لاعبين أكثر "وسطية" مثل رئيس الوزراء السابق ميقاتي.¹³⁵ من الواضح أن الوقوف إلى جانب أحد أطراف الطيف السياسي ضد طرف آخر يمكن أن يترك أثراً عكسية، مما يدخل السوريين في الانقسامات السياسية والمذهبية لجيرانهم وإلى تنفير شرائح واسعة من السكان المحليين.

3. دور الجمعيات الخيرية الإسلامية

كما تمت مناقشته في تقرير سابق فإن الانتفاضة عززت بشكل كبير العلاقات بين الإسلاميين في سورية ولبنان، الذين كانوا قد عانوا خلال سنوات السيطرة السورية.¹³⁶ لا ينطبق هذا الانبعث على المتشددين فقط؛ حيث أن جملة واسعة من المنظمات الخيرية الإسلامية قامت بمعظم العمل لمساعدة اللاجئين، إلى جانب مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين وشركائها. وقد استفادت هذه الجمعيات من هذا التقارب. لقد جمعت الجمعيات الخيرية الإسلامية، النشطة في سائر أنحاء العالم العربي، لاسيما في منطقة الخليج، التبرعات وأقامت شراكات مع نظيراتها على المستويين الدولي والمحلي.¹³⁷ تلعب الطبيعة العابرة للحدود لهذه الشبكات الإسلامية - سواء كانت مرتبطة بالإخوان المسلمين أو بالسلفيين - دوراً هاماً، من حيث أن الأفراد، والمنظمات

¹³⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط سوري، طرابلس، شباط/فبراير 2013. في أمثلة قليلة، يذكر أن الأجهزة الأمنية اللبنانية التي ترتبط بعلاقات وثيقة بحزب الله والنظام السوري اعتقلت نشطاء سوريين أو رحلتهم. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط في مجال حقوق الإنسان، بيروت، أيلول/سبتمبر 2012.

¹³¹ انظر (بانوراما الشرق الأوسط)، بيان تحالف 14 آذار، 14 تشرين الثاني/نوفمبر 2012. مسؤول في 14 آذار أشار إلى أن: "[تحالف 14 آذار] لم يمثل إحدى القوى الرسمية في الدولة. وبالتالي، فإن إعلانهم لم يرق إلى الاعتراف بالتحالف السوري. بدلاً من ذلك دعا الحكومة إلى القيام بذلك". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2012.

¹³² حيث الرسالة "شهداء ثورة الأرز [والانتفاضة اللبنانية ضد الوجود السوري التي أدت إلى ولادة تحالف 14 آذار]" وقالت إن المجلس الوطني السوري "يعتبر نصركم على جيش الأسد الضربة الأولى التي وجهت إلى هذا النظام. في المحصلة فإن نظام الأسد سينهار وسيكون لسورية أفضل العلاقات مع لبنان، وهي علاقات تستند إلى أواصر الأخوة، وليس إلى الشعارات التي كان النظام قد تبناها". *The Daily Star*, 15 February 2012, "March 14 salutes the Syrian opposition".

¹³³ التزم المجلس الوطني السوري بأشياء من بينها: "مراجعة الاتفاقيات الموقعة بين البلدين والتوصل إلى اتفاقيات جديدة تقوم على الاستقلال والمصالح المشتركة للبلدين؛ والتركيز على العلاقة بين البلدين في إطار التمثيل الدبلوماسي من خلال سفارتنا؛ وإلغاء المجلس الأعلى السوري اللبناني [المجلس الذي أنشأه النظام السوري ويعتبره كثيرون رمزاً لهيمنة دمشق على جارتها]؛ وترسيم الحدود السورية، لاسيما في مزارع شبعاء؛ ووضع حد للدور الاستخباراتي والأمني، الذي كان في الماضي يتدخل في الشؤون اللبنانية (بما في ذلك تهريب السلاح)؛ وتشكيل لجنة تقصي حقائق لتسوية قضية اللبنانيين المعتقلين والمفقودين في السجون السورية". "رسالة مفتوحة إلى الشعب اللبناني من المجلس الوطني السوري"، موقع المجلس على الإنترنت، 26 كانون الثاني/يناير 2012، www.syrian council.org/en/news/item/531-pen-letter-to-the-lebanese-people-from-the-snc.html.

¹³⁴ يتمثل أحد الأسباب في الانقسامات العميقة والنشطي داخل المعارضة السورية؛ على حد تعبير مسؤول في القوات اللبنانية، الحزب العضو في تحالف 14 آذار، فإن "المعارضة السورية مرت بتحويلات عدة، وانقسامات وصراعات داخلية. علينا أن نكون حذرين، وأن ننظر ظهور توازن جديد كي لا نقف مع طرف ضد طرف آخر". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، نيسان/أبريل 2013.

¹³⁵ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في تيار المستقبل، ومع نشطاء سوريين، طرابلس وبيروت، 2012. أحد ممثلي لجنة تنسيق اللاجئين السوريين في لبنان ذهب إلى حد وصف ميقاتي بأنه "عميل للنظام السوري". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، شباط/فبراير 2013.

¹³⁶ انظر تقرير مجموعة الأزمات، "توازن هش"، مرجع سابق، ص. 3-5.

¹³⁷ على سبيل المثال، يجمع اتحاد الجمعيات الإغاثية لرعاية اللاجئين السوريين في لبنان تحت مظلة أكثر من 70 منظمة، معظمها إسلامية، من لبنان، والكويت، والسعودية، وسورية، والأراضي الفلسطينية المحتلة، وتركيا وحتى المملكة المتحدة. وهو يضم، بين منظمات أخرى، هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية في السعودية، والهيئة الخيرية الإسلامية العالمية في الكويت ومنظمة الإغاثة الإسلامية في المملكة المتحدة.

ز عدد من المانحين الرسميين يرسلون المال للاجئين من خلال هذه المجموعات. كما أنها استفادت من الفراغ الذي تركته نظيراتها غير الإسلامية.¹³⁸

أخيراً، وعلى عكس منظمات مثل مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين التي ينبغي أن تتبع قواعد محددة وأن تنسق بشكل وثيق مع الدولة اللبنانية، فإن الجمعيات الخيرية الإسلامية تعمل في بيئة غير رسمية وأقل خضوعاً للأنظمة تسمح لها بالوصول إلى نطاق واسع من المستفيدين. ويشمل هؤلاء المستفيدون المقاتلين السوريين والمنشقين عن الجيش واللاجئين غير الراغبين بالإفصاح عن معلومات شخصية للمؤسسات الرسمية أو الذين يعيشون في بلدات وقرى بأعداد محدودة.¹³⁹

كما سمح تقديم الإغاثة الإنسانية للمنظمات الإسلامية بتعميق نفوذها على المستويين الاجتماعي والديني. يذهب العديد من اللاجئين إلى المساجد وبالتالي وقعا تحت تأثير المشايخ اللبنانيين الذين ازدادت شعبيتهم بين السوريين واللبنانيين على حد سواء.¹⁴⁰ الأهم من ذلك أن هذه المنظمات تضطلع بدور رئيسي في تعليم آلاف السوريين الذين يذهبون إلى المدارس ذات التوجهات الإسلامية.¹⁴¹ على وجه الإجمال، فإن أزمة اللاجئين وفرت فرصة كبيرة للمنظمات الواقعة على الحد الفاصل بين العمل الخيري والتبشيري لتحقيق المزيد من النفوذ.¹⁴²

لقد ولد هذا مخاوف بين السوريين واللبنانيين على حد سواء. من الصعب مراقبة أنشطة هذه المنظمات؛ كما يصعب منعها إذا كانت تستعمل لأغراض عسكرية. أحد مستشاري رئيس الوزراء ميقاتي حذر قائلاً: "عدد من هذه المنظمات غير معروف للسلطات اللبنانية. تتدفق الأموال ولا تعرف الدولة شيئاً عن مصدرها أو عن مقصدها. يمكن أن تستعمل لتمويل الأعمال العسكرية، ولن يكون بإمكان أحد السيطرة عليها."¹⁴³ إلى حد ما، فإن تقديم الإغاثة اتسم بالتحيز المذهبي، حيث يزعم بعض اللاجئين أنهم حرّموا من المساعدة بسبب هويتهم.¹⁴⁴

كما يخاطر نفوذ المنظمات الإسلامية بتعميق الانقسامات السورية بدفع جيل من السوريين نحو الراديكالية، وذلك بغرس مبادئ متشددة معادية للشيعنة ومعادية للعلويين.¹⁴⁵ مسؤول لبناني قال: "لا نعرف الكثير عن هذه

¹³⁸ لقد كان هذا هو الوضع بوجه خاص بالنسبة لمؤسسة الحريري، التي عانت من صعوبات مالية خطيرة. أجبرت على إغلاق عدد من مراكز خدمة المجتمع - في عكار، وطرابلس وادي البقاع. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع ممثلين للمنظمات الإسلامية اللبنانية والدولية، بيروت وطرابلس، شباط/فبراير 2013؛ ومع مسؤول رفيع في تيار المستقبل، بيروت، 5 شباط/فبراير 2013.

¹³⁹ على سبيل المثال، تسجل مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين فقط اللاجئين المدنيين ولا تعمل في المناطق التي يتواجد اللاجئون فيها بأعداد صغيرة نسبياً. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في المفوضية، وممثل لمنظمة غير حكومية، بيروت، صيدا، شباط/فبراير 2013؛ ومع ممثلين لمنظمات إسلامية، بيروت، طرابلس، صيدا، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير 2013.

¹⁴⁰ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع لاجئين سوريين، طرابلس، عكار، بيروت، صيدا، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير 2013، ومع ممثلين لمنظمات إسلامية ولاجئين سوريين، بيروت، طرابلس، صيدا، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير 2013.

¹⁴¹ رغم أن الحكومة سمحت للاجئين بالالتحاق بالمدارس العامة، فإن معظمهم يواجهون صعوبات كبيرة بسبب الاختلافات بين المناهج في البلدين والعقبات المتعلقة باللغات الأجنبية (المدارس اللبنانية)، على عكس نظيراتها السورية، تدرس بعض المواد بالإنكليزية أو الفرنسية). وفقاً لمفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، فإن التحاق الطلاب اقتصر على حوالي 30% من إجمالي الطلاب. تدخلت المنظمات الإسلامية لملاء الفراغ؛ فالجماعة الإسلامية، التي تدير شبكة واسعة من المدارس المعتمدة من قبل الدولة، فتحت صفوفاً تستعمل المناهج السورية. طبقاً لرئيس مكتبها السياسي، فإن مدارس الحركة تخدم أكثر من 15,000 طالب سوري وتوظف حوالي 600 مدرس. لكن في المستقبل، فإن كون لبنان لا يعترف رسمياً بالمناهج السورية يمكن أن يسبب مشكلة؛ كما أن الأمر يعتمد على موقف السلطات السورية، حيث أن النتائج الرسمية والشهادات التي سيحصل عليها آلاف السوريين قد لا يتم الاعتراف بها. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، ورئيس المكتب السياسي في الجماعة الإسلامية، ومسؤولين لبنانيين وأسر سورية، بيروت، طرابلس، صيدا، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير 2013.

¹⁴² رئيس المكتب السياسي للجماعة الإسلامية قال، "لو كانت قدرات القوى الإسلامية جميعها على نفس المستوى قبل عامين، لتمكنت من معالجة قضية اللاجئين بالطريقة التي تعالجها اليوم. إن نطاق عملها والدعم الذي تتلقاه تعتبر مؤشرات واضحة على نموها". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، شباط/فبراير 2013. رئيس منظمة إسلامية غير حكومية عبّر عن نفس الرأي: "منذ الانتفاضة السورية، توسع عملنا بشكل هائل. ارتفع عدد موظفينا من 25 عام 2011 إلى أكثر من 70 اليوم. نحن نعمل في مجالات جديدة، مثل التعليم. تضاعفت ميزانيتنا ثلاث مرات إن لم يكن أربع مرات". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، شباط/فبراير 2013.

¹⁴³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد مستشاري ميقاتي، بيروت، شباط/فبراير 2013.

¹⁴⁴ ناشط كردي سوري قال، "أخبرني عدد من اللاجئين الأكراد، في أعقاب معركة رأس العين [بين قوات المعارضة والقوات الكردية]، أن المنظمات غير الحكومية الإسلامية حرمتهم من المساعدات، متمه الأكراد بأنهم عملاء للأسد". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، شباط/فبراير 2013. رغم أن هذا يبدو حال المنظمات ذات التوجهات السلفية، فإن العديد من المنظمات الإسلامية تقدم المساعدات بصرف النظر عن الهوية السياسية المذهبية للمتلقين. كما أن الأعداد المنخفضة للمستفيدين العلويين والمسيحيين تعكس إحصائهم عن طلب المساعدة من منظمات تعتبر مناهضة للنظام. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع ممثلين لجمعيات إسلامية خيرية، بيروت، طرابلس، صيدا، شباط/فبراير 2013. رئيس إحدى المنظمات الخيرية الإسلامية قال، "لا تمنع المساعدات عن العلويين، ولا نسال عن الانتماء الديني للمستفيدين المحتملين. لكن العديد من اللاجئين غير السنة امتنعوا عن طلب المساعدة من الجمعيات الخيرية الإسلامية، حتى ولو لم تكن طائفية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، شباط/فبراير 2013.

¹⁴⁵ عدد من اللبنانيين والسوريين قالوا إن عدداً من المنظمات الإسلامية تستعمل مثل ذلك الخطاب. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، صيدا، شباط/فبراير 2013. رغم ذلك فإن رئيس المكتب السياسي في الجماعة الإسلامية قال إن المنظمة تراقب ما يدرس في مدارسها وحظرت استعمال الخطاب الطائفي. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، شباط/فبراير 2013.

الصفوف التي تدرّس مستعملة المنهاج السوري. لا نعرف نوع التعليم أو الأفكار التي يتلقاها الأطفال السوريون".¹⁴⁶ ناشط سوري حذر قائلاً: "هذه المنظمات الإسلامية تفرض منظورها المذهبي على ثورتنا. كلما استمر هذا الوضع لفترة أطول، كلما تعمقت المذهبية في أذهان اللاجئين".¹⁴⁷

ب. تعزيز قوة الشبكات الموالية للنظام

رغم أزمته الداخلية الحادة، حافظ النظام السوري على مجموعة كبيرة من الحلفاء والعملاء اللبنانيين حموه، إلى حد ما، من التهديدات التي يمكن أن يتعرض لها من البلد المجاور. رسمياً حافظت حكومة ميفاتي على سياسة النأي بالنفس التي امتنعت بيروت بموجبها عن اتخاذ المواقف المعادية في المنظمات الإقليمية أو الدولية.¹⁴⁸ إلا أن حلفاء النظام لم يساعدوا فقط في كبح جماح دعم المعارضة السورية، على الأقل في المراحل الأولى للانتفاضة؛ بل إنهم عمقوا التعاون السياسي والعسكري مع دمشق.¹⁴⁹

اضطلع حزب الله بهذه المهمة؛ فخلال السنة الأولى للانتفاضة، كان الحزب في ما يبدو يقدم الدعم السياسي لحليفه، رغم أن الولايات المتحدة اتهمته بمنح النظام دعماً لوجستياً وعملياتياً.¹⁵⁰ بمرور الوقت، تطور هذا الدعم إلى ما يبدو أنه أصبح انخراطاً عسكرياً كاملاً وشاملاً. وهنا تكثرت المزاعم، والعلامات وأيضاً الاعترافات حالياً. في البداية، أشارت التقارير الصحفية ومزاعم المسؤولين الغربيين¹⁵¹ والمعارضة السورية إلى أنشطة عسكرية دعماً للنظام أو الدفاع عن العدد المحدود للشبيعة السوريين، خصوصاً في المناطق المجاورة لمدينة القصور، الاستراتيجية نظراً لقربها من البقاع اللبناني وأيضاً من الطريق الدولي الذي يربط دمشق بحمص.¹⁵² قلل مسؤولو الحزب من مدى انخراطه. في تشرين الأول/أكتوبر 2012 اعترف أمينه العام بأن بعض الشبيعة اللبنانيين الذين يعيشون في سورية كانوا يدافعون عن بلداتهم ضد هجمات المعارضة.¹⁵³ وأضاف: "عندما يأتي اليوم الذي تتطلب فيه مسؤوليتنا أن [نقاتل في سورية]، لن نخفي ذلك".¹⁵⁴

ظهر مؤشر واضح على المشاركة الأعمق للحزب في آذار/مارس 2013 عندما قدمت صحيفة الأخبار، وهي صحيفة موالية عموماً لحزب الله، رواية مفصلة لدور الحزب في سورية. رئيس تحرير الصحيفة، المعروف بعلاقاته الوثيقة بحزب الله كتب:

يقوم حزب الله بتدريب، وتسليح، وتقديم الدعم اللوجستي الكافي للسكان اللبنانيين في القرى الحدودية؛ لقد تولى مسؤولية حماية مقام السيدة زينب¹⁵⁵ [وهو من المواقع الرئيسية التي يحج إليها الشيعة] جنوب دمشق بعد أن غادر حراسه العراقيون. ينتشر أفراد الحزب هناك وفق خطة تقصر مسؤوليتهم على الجوار

¹⁴⁶ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، شباط/فبراير 2013.

¹⁴⁷ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، شباط/فبراير 2013.

¹⁴⁸ إضافة إلى ذلك، فقد نظم أنصار سورية عدة تجمعات لدعم النظام. كما قاموا بهجوم المظاهرات المعادية للنظام فعلياً. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع نشطاء سوريين ولبنانيين مناهضين للنظام، بيروت، كانون الثاني/يناير 2012. انظر أيضاً، *النهار*، 7 آب/أغسطس 2011.

¹⁴⁹ قوات الأمن التي تعتبر بشكل عام مقربة من النظام السوري اعترضت عدة شحنات أسلحة موجهة للمعارضة السورية؛ وفي عدد من الحالات، اعتقلت نشطاء لبنانيين وسوريين مناهضين للنظام؛ ويصدر حلفاء النظام بشكل منتظم بيانات تدين الدعم اللبناني للمعارضة السورية. للمزيد، انظر تقرير مجموعة الأزمات، "توازن هش"، مرجع سابق، ص. 2-4، 10-11.

¹⁵⁰ www.state.gov/r/pa/prs/ps/2012/08/196335.htm

¹⁵¹ طبقاً لمسؤولين أمريكيين وفرنسيين، فإن حزب الله - الذي يعمل يداً بيد مع إيران - بات الآن ضالماً بشكل كامل في الصراع. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول أمريكي، واشنطن، شباط/فبراير 2013. مسؤول أمريكي قال، "إن الدعم الذي يقدمه حزب الله يفوق كثيراً ما توقعناه. جميعهم منخرطون. ثمة عدد كبير - حوالي 2000 إلى 2500 من مقاتليه في سورية. إنهم احترازيون وشديدو الفعالية، وعندما يكونون موجودين، فإن أداء النظام يكون أفضل بكثير، كما حدث عندما حاول استعادة مطار حلب. الحقيقة هي أنه ليس هناك موقع يحتفظ به المتمردين لا يستطيع حزب الله استرجاعه". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، واشنطن، آذار/مارس 2013. مسؤول أمريكي آخر ذكر نفس الرقم؛ انظر *The Wall Street Journal*, 7 May 2013.

¹⁵² انظر على سبيل المثال، *The Christian Science Monitor*, 18 January 2013; "The reasons behind Hezbollah's decision to fight in Syria", *al-Monitor*, 11 April 2013; "FSA says Hezbollah has thousands of fighters in Syria", *Arabiyya*, 11 April 2013.

¹⁵³ الحدود بين لبنان وسورية لا تزال دون ترسيم، وبعض القرى تقع على جانبي الحدود؛ وليس من غير الشائع أن تجد مواطنين لبنانيين يعيشون على أراض سورية والعكس.

¹⁵⁴ المنار، 11 تشرين الأول/أكتوبر 2012.

¹⁵⁵ زعمت صفحة على فيس بوك بعنوان "حملة الدفاع عن مقام السيدة زينب" تحتفي بـ "شهداء حزب الله" الذين يُزعم أنهم قتلوا وهم يدافعون عن المقام؛ ونشرت صورهم وسيرتهم الذاتية على الصفحة. www.facebook.com/SYria.Al.Assad.SYR.

المباشر للمقام؛ ويساعد حزب الله، الذي يرتبط بعلاقات أمنية وعسكرية مع النظام، القوات السورية في توفير الحماية للأكاديميات العلمية ومصانع الصواريخ التي بنيت خلال العقد الماضي وبمساعدة إيرانية.¹⁵⁶

علاوة على ذلك، فإن اعتراف الحزب بسقوط مقاتليه في المعارك عزز من الرأي القائل بأن مقاتليه كانوا ضالعين في الصدامات مع المعارضة السورية المسلحة.¹⁵⁷

بحلول نيسان/أبريل 2013، كان حزب الله قد مضى خطوة أبعد، واعترف رسمياً بأن مقاتلي الحزب كانوا منخرطين في المعارك لحماية الشيعة في سورية. مسؤول رفيع وصف هذا بأنه "واجب أخلاقي ووطني... شهداء حزب الله هم شهداء الأمة لأنهم كانوا يدافعون عن عائلاتهم اللبنانية".¹⁵⁸ تدريجياً أصبح الحزب أكثر صراحة حول دوره. مؤخراً، في 30 نيسان/أبريل، وفي أطول خطاب له حول هذه القضية، أشار نصر الله إلى أن المقاتلين اللبنانيين كانوا قد عبروا الحدود للدفاع عن القصير وحماية المقامات الشيعية:

لن نترك اللبنانيين في ريف القصير عرضة للهجمات، ولن نتردد في مساعدتهم... الجماعات المسلحة على بعد مئات الأمتار فقط من مقام السيدة زينب، وقد أصدرت المجموعات التكفيرية تهديدات واضحة على الإنترنت بأنهم سيدمرون المقام إذا دخلوا المنطقة... نحن لا نتهم السنة على الإطلاق. مشكلتنا مع المجموعات التكفيرية، وعلى الجميع أن يفتقروا في وجههم وأن يمنعوهم من تدمير المقام... المقاتلون الذي يستشهدون هم الذين يمنعون الفتن الطائفية... لقد تحدثت عن قضية القصير وقلت إنه تم استهداف 30,000 مسلم ومسيحي لبناني، أحرقت منازلهم ومنعوا من الذهاب إلى أعمالهم. لهؤلاء الناس الحق بالقيام بما يلزم للدفاع عن أنفسهم ولهم الحق في تلقي المساعدة، وهذا أمر أخلاقي وإنساني.¹⁵⁹

كما أنه مضى إلى أبعد من التلميح حول المدى الذي يمكن للحزب أن يمضي إليه إذا بات النظام مهدداً: "إذا ما الذي سيحدث إذا تدهورت الأمور، وأجبرت الدول والقوى على التدخل؟ لسورية أصدقاء حقيقيين لن يسمحو لسورية أن تسقط في يد أميركا أو إسرائيل، أو في يد الجماعات التكفيرية. كيف سيمنعون هذا؟ سيأتي الجواب لاحقاً، لكن ما أقوله حقيقة".¹⁶⁰

ارتفعت الحرارة بدرجة كبيرة في مطلع أيار/مايو، مع جملة متتابعة من التطورات العملية والخطابية التي أشارت إلى درجة أكبر من احتمال أفلمة الصراع ومزيد من التوحيد بين منظوري حزب الله والنظام، ومصالحهما وأفعالهما. في الثالث والخامس من أيار/مايو، استهدفت غارات جوية - يُعتقد على نطاق واسع أنها إسرائيلية وأنها استهدفت أنظمة أسلحة يمكن نقلها إلى حزب الله - ضربت أهدافاً سورية.¹⁶¹ بعد بضعة أيام، قال نصر الله، "نحن مستعدون لتلقي أية أسلحة كاسرة للتوازن" و "كما وقفت سورية إلى جانب لبنان، فإننا نعلن في المقاومة أننا سنقف مع المقاومة الشعبية السورية التي تهدف إلى تحرير الجولان السوري".¹⁶² وفي الآن ذاته، يذكر أن الأسد أكد على درجة التنسيق التي وصل إليها الكيانان في العمل معاً:

لقد قررنا أن نعطيهم [حزب الله] كل شيء... لأول مرة نشعر بأننا نحن وهم نعيش نفس الوضع، وأنهم ليسوا مجرد حليف نساعد في المقاومة... لقد قررنا أن علينا أن نتحرك إلى الأمام نحوهم وأن نتحول إلى بلد مقاوم كحزب الله، من أجل سورية والأجيال القادمة.¹⁶³

لم يمر انخراط حزب الله المتزايد دون نقاش داخلي. طبقاً لأحد المسؤولين:

هناك اتجاهان، رغم أنه سيكون من الخطأ وصف هذا بالصدام. يعتقد أحد المعسكرين أنه كان ينبغي على حزب الله أن يناقش بنفسه. لكن من الواضح أن هذا المعسكر خسر المناظرة. المعسكر الآخر مقتنع أن كل ما يحدث في سورية هو امتداد للهجمات التي تعرّض لها الحزب ومقدمة للمزيد من الاعتداءات في حال سقط النظام. وفقاً لهذا الرأي، فإن السياسات القطرية والسعودية يميلها أعداؤنا الحقيقيون، الولايات المتحدة

¹⁵⁶ "دور حزب الله في سورية"، الأخبار (بالإنكليزية)، 28 آذار/مارس 2013.

¹⁵⁷ دفن العديد من مقاتلي حزب الله دون أن يوضح الحزب ظروف وفاتهم. وهذا السلوك غير معتاد من قبل الحزب؛ حيث يقوم بالعادة بتعميد مقاتليه الذين يقتلون في المعركة ضد إسرائيل وبشكل علني.

¹⁵⁸ "Defending Lebanese in Syria is a moral duty: Hizbollah", *The Daily Star*, 22 April 2013.

¹⁵⁹ "نصر الله: لن نتردد في المساعدة" مرجع سابق.

¹⁶⁰ المرجع السابق.

¹⁶¹ إسرائيل لم تؤكد ولم تنف مسؤوليتها عن الهجمات، التي ذكر أن الثانية منها استهدفت مركزاً عسكرياً حيويًا للنظام وأدت إلى مقتل عشرات العسكريين. انظر *Today's Zaman*, 7 May 2013.

¹⁶² *The Daily Star*, 9 May 2013.

¹⁶³ نشر التصريح في صحيفة الأخبار الموالية لحزب الله، 9 أيار/مايو 2013.

وإسرائيل؛ وهدفهم هو إضعاف محور المقاومة؛ وردنا الأفضل هو إحباط هذه المحاولة لمواجهتهم في سورية.¹⁶⁴

أدى موقف الحزب إلى تهديدات قاسية من قبل المعارضة السورية. في شباط/فبراير 2013، حذر الجيش السوري الحر - الذي زعم أن مقاتلي حزب الله كانوا يدعمون قوات النظام بقصف سورية من بلدة الهرمل شمال لبنان - بأنه إذا لم يتوقف ذلك، "فإننا سنتولى زمام الأمور ونرد على مصادر النيران ونوقفها داخل الأراضي اللبنانية".¹⁶⁵ في 22 نيسان/أبريل، وصف رئيس الائتلاف الوطني السوري بالإنبابة دور حزب الله في وسط سورية بأنه "إعلان حرب ضد الشعب السوري".¹⁶⁶

يبدو أن مقاربة حزب الله كانت مدفوعة بعدد من الاعتبارات المتمثلة في ضمان بقاء النظام؛ وحماية المناطق الحساسة على الحدود الشرقية للبنان بحيث لا تقترب المعارضة السورية بشكل مفرط من معقل الحزب في سهل البقاع؛ وضمان استمرار اتصال المناطق التي يسيطر عليها حزب الله والمهمة بالنسبة للنظام، من أجل استمرار التواصل بين دمشق/حمص/حماء إلى معقل الحزب الشيعي شرق الهرمل. لواء متقاعد تربطه علاقات وثيقة بالحزب قال، "لا يمكن لحزب الله أن يقبل بوجود مجموعة مسلحة معادية على مرمى نظره".¹⁶⁷

تماماً كما يبرر الإسلاميون أفعالهم بالإشارة إلى انخراط حزب الله، فإن الحزب الشيعي يفسر أفعاله بإبراز ما يفعله الإسلاميون وكذلك بلدان الخليج وتركيا. مسؤول في الحزب قال، "كلما اتسع نطاق أنشطة حلفاء المعارضة السورية، كلما تعمق انخراط حلفاء النظام".¹⁶⁸

في المستقبل، يمكن لحزب الله أن يسعى للقيام بدور الحامي لتحالف من الأقليات على جانبي الحدود والتي تشعر بالتهديد من صعود السنة. طبقاً لصحيفة *الأخبار*، فإن الحزب "استقبل وفوداً من عدد كبير من الجماعات الدرزية، والمسيحية، والشيعية والإسماعيلية [السورية] التي شعرت بأن طوائفها تتعرض لتهديد خطير. لم يستجب الحزب لطلباتهم بتقديم التدريب والتسليح لكنه وفر لهم الوسائل المناسبة لمنع تهجيرهم".¹⁶⁹

¹⁶⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، أيار/مايو 2013.

¹⁶⁵ مقتبس في *واشنطن بوست*، 19 شباط/فبراير 2013.

¹⁶⁶ المتمردون السوريون يحذرون من أن دور حزب الله في القتال يمثل 'إعلان حرب'، *الآن*، 22 نيسان/أبريل 2013. بعد يومين، خاطب معاذ الخطيب (الذي كان قد استقال من منصبه كرئيس للائتلاف) الأمين العام لحزب الله شخصياً في خطاب عاطفي قائلاً: "لا ينبغي هدر دماء أبنائكم في لبنان في قتال أبنائنا المضطهدين في سورية. أناشدك أن تسحب جميع جنود حزب الله من سورية والبدء بالتواصل مع الثوار في جميع القرى الشيعية، لضمان أمن الجميع... لقد عقد تدخل حزب الله في سورية المسائل بشكل كبير؛ كنت أتوقع من شخصية بمكانتكم السياسية والاجتماعية أن تكون عاملاً إيجابياً، وأن توقف سفك دماء السوريين". www.facebook.com/ahmad.mouaz.alkhatib.alhasani.

¹⁶⁷ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع لواء متقاعد تربطه علاقات وثيقة بحزب الله، بيروت، شباط/فبراير 2013.

¹⁶⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في حزب الله، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2012.

¹⁶⁹ المرجع السابق. إلى حد ما، فإن التحالف بين التيار الوطني الحر بزعامة عون وحزب الله مدفوع بأسباب طائفية، من حيث أن الزعيم المسيحي يرى في الهيمنة الإقليمية السنية تهديداً لطائفته، ما يدفع بالضرورة إلى رص صفوفه مع الشيعة. انظر تقرير مجموعة الأزمات، "المعادلة اللبنانية"، مرجع سابق، ص. 9.

.v. الخلاصة

لقد أثبت الصراع في سورية مرة أخرى، إذا كان هناك حاجة لدليل آخر، إلى أي حد يرتبط ويتداخل مصير البلدين الجارين. إن التنشيط المتزايد في سورية وانحدار الأوضاع إلى الفوضى يغذي الاستقطاب المذهبي في لبنان، تماماً كما يضيف الاستقطاب المذهبي في لبنان إلى متاعب جارته. لم تعد المخاطر الجدية ذات صلة، مع تعمق الصلات عبر الحدود سواء من الناحية السياسية، أو من ناحية التشدد، أو حتى من الناحية العسكرية. يمكن القول إن المفاجأة الأكبر حتى الآن هي أن لبنان - ورغم هشاشته، وضعف مؤسسات الدولة فيه والتوازن الطائفي الهش الذي يتسم به - لم يتدهور أكثر. لكن هناك كل ما يدفع إلى الخوف من أن الوضع سيصبح أكثر سوءاً. من المرجح أن يزداد تدفق اللاجئين، الذي يضغط بشكل كبير على القدرات السياسية، والاجتماعية والاقتصادية للبلاد ويدفعها إلى نقطة الانهيار، بشكل دراماتيكي إذا بدأت معركة دمشق وعندما تبدأ تلك المعركة. في الوقت ذاته، فإن تعمق انخراط القوى اللبنانية في الحرب يعرض الاستقرار الهش للبنان لمخاطر جدية، ويضمن أن تدفع المجتمعات المحلية على الحدود بين البلدين ثمناً باهظاً.

بين هاتين الديناميكتين، فإن تدخل اللاعبين اللبنانيين هو دون شك الأصعب احتواءً؛ فرغم السياسة الرسمية القاضية بالنأي بالنفس، فإن الإسلاميين السنة، وحزب الله على وجه الخصوص، يبدون مقتنعين بأن الصراع في سورية صراع وجودي، وبالتالي لن يتراجعوا. لكن، في الحد الأدنى، ينبغي فعل المزيد لمعالجة قضية اللاجئين، من أجل التعامل مع بعدها الإنساني، والحد من التبعات الاجتماعية والسياسية السلبية والتحصير لموجات جديدة يُتوقع وصولها. بدلاً من ذلك، فإن الطبقة السياسية المنقسمة في لبنان اكتفت باستغلال القضية، وسمحت لأجندات مختلف الأطراف بإملاء مقارباتها على حساب رفاه وسلامة البلاد واللاجئين على حد سواء.

ينبغي أن يتغير هذا. حالما تتشكل الحكومة الجديدة، ينبغي أن تجعل من قضية اللاجئين أولوية لها، وأن تشرع في اتخاذ خطوات ومبادرات لمعالجتها وذلك بتخصيص موارد إضافية؛ والعمل مع جميع أجزاء الطيف السياسي، بجدية وإخلاص لاستكشاف إمكانية إقامة مخيمات للاجئين - بعيداً عن الخطب الدبلوماسيية والاستغلال السياسي السائد اليوم. كما ينبغي على مجتمع المانحين أيضاً أن يقوم بدوره من خلال بذل جهود متضافرة لمعالجة مشكلة، إذا تركت دون معالجة، فإنها ستصبح كارثة أخرى في حلقة من الأزمات لا تحتمل المزيد.

بيروت/بروكسل، 13 أيار/مايو 2013

الملحق أ: خارطة لبنان

